المدينة الحديثة

وفن العمارة وتنظيم المدن

سابا جورج شبر

تقديم

د. أمجد رضوان

الكتاب: المدينة الحديثة وفن العمارة وتنظيم المدن

الكاتب: سابا جورج شبر

تقديم : د. أمجد رضوان

الطبعة: ٢٠١٨م

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية


هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

سابا ، جورج شبر

المدينة الحديثة وفن العمارة وتنظيم المدن / سابا جورج شبر

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١١٢ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولي: ٩ – ٧٦١ – ٤٤٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٨٥٩٢ / ٢٠١٨

المدينة الحديثة
وفن العمارة وتنظيم المدن



مقدمة :

جميعنا يعلم مدى عظمة ومكانة أبنية دولة الكويت، ولكن قليلين هُم من أبناء هذا الجيل من الكويتيين الذين يعرفون الدكتور سابا شبر، ويدركون الأعمال الباهرة التي قام بها هذا الرجل خلال فترة حياته في الكويت.

الدكتور سابا شبر هو رجل مُتخصص في تخطيط وتطوير المدن؛ كما كان من أبرز العاملين في بلدية الكويت، وكان يرى أن عمله الذي يقوم به إنما هو بمنزلة تأدية رسالة يضطلع بها تجاه دولة الكويت، وذلك لأنه مُحب لهذا الوطن ومُحب لعمله في آن واحد، كان إنساناً رقيقاً حسن المعشر تجلس معه فتشعر أنك تجالس فناناً لا مُهندساً، كما كان لا يتحدث في أمر من أمور الدنيا إلا فيما يتعلق بتطوير المباني وتخطيط المُدن، كما كانت فيه تلك النزعة الشديدة لتنفيذ ما يُفكر به، وإلى تحويل الأوراق التي يضع عليها الرسوم التي يبتكرها لواقع ملموس.

وفي ذات يوم كان يتحدث عن نوع من المباني يُطلق عليه عندنا اسم (القيصرية) وهو اسم عربي قديم شاع في الأندلس ولا يزال سارياً هناك حيث يسمونه (قيسارية) وكان سابا جورج شبر يرى أن القدماء لم يبنوا هذا النوع من المباني عبثاً، ولكنهم أنشأوه لحاجتهم إليه فهو مبنى يقي المتسوقين حرارة الشمس، والبلل من المطر، وهو نوع يتمنى أن يعود بعد أن انقطع وجوده عندنا، وهذه الفكرة كانت تُلح عليه إلحاحاً

شديداً، وقد فرح فرحاً شديداً عندما علم بأن بلدية الكويت قد اقتنعت بالعودة لذلك الشكل من أشكال البناء، وتقرر البدء بأول قيصرية حديثة، وتم له بالفعل تخطيط بعض الأسواق التي جرى إنشاؤها بنظام القيصريات وهي المباني التي نجدها في المنطقة التجارية التاسعة من سوق الكويت، وتعددت بعد ذلك المباني من هذا النوع، وتطورت إلى أن وصلنا إلى الشكل الذي يُسمى اليوم (المولات) وهو شكل لا يخرج عن شكل القيصرية القديمة إلا من حيث الفخامة التي فرضها التطور، وتغير الأحوال، ولم تقتصر جهود الدكتور سابا شبر على ما ذكرناه فإن له مشاركات كثيرة في عدد من الأعمال المعمارية المهمة، وله فكر معماري متقدم حيث إنه أورد هذا الفكر في كتبه وأبحاثه وفي الندوات والمؤتمرات التي يشارك فيها على امتداد حياته العملية.

وُصف الدكتور سابا شبر بأنه معماري فذ، لم يكن له نظير في منطقتنا العربية وذكر كثيرون من الكُتّاب أن ما قام به هذا الرجل من كتابته للتاريخ المعماري للكويت، ورصده للحركة المتنامية للتطور دليل على ذهن صافٍ وعقل مُدرك للعمل الجاد والمهم الذي يقوم به، ولكن كان من سوء حظنا أن توفي سابا شبر فجأة في اليوم الرابع من شهر يوليو لسنة ١٩٦٨م، وذلك بعد فترة عمل استمرت من سنة ١٩٦٠م حتى سنة وفاته.. كما كان حجم الأعمال التي قام بها كبيراً جداً حتى لنظن أنه أقام هنا أكثر من هذه السنوات الأربع. وكان قد ولد في مدينة القدس في سنة ١٩٢٣م وبهذا يكون قد ناهز الحادية والأربعين يوم وفاته، وانتقل للدراسة في الجامعة الأمريكية ببيروت حيث حصل منها

على بكالوريوس الهندسة المدنية في سنة ١٩٤٤م، ثم انتقل لجامعة القاهرة التي حصل منها على بكالوريوس الهندسة المعمارية في سنة ١٩٤٦م، وفي سنة ١٩٤٧م تخرج في جامعة ماساشوتس بالولايات المتحدة حاصلاً على ماجستير في العمارة وتخطيط المدن في سنة ١٩٤٨م، وواصل دراسته بأن تقدم لجامعة كورنيل هناك في سنة ١٩٥٦م فحصل منها على شهادة الدكتوراه في تخطيط المدن والتخطيط الإقليمي.

كان وهو مُقيم في الولايات المتحدة الأمريكية مُشاركاً في عدد كبير من الأنشطة المتعلقة بتخصصه، وعمل لمدة أربع سنوات في مجال العمارة وتخطيط المدن في الولايات المتحدة إضافة لقيامه بالتدريس بصفته أستاذاً جامعياً في جامعتين من الجامعات الأمريكية المرموقة، وكان يكتب كثيراً مُعبراً عن أفكاره حتى تجاوزت مقالاته الألف مقالة منها ما كتبه باللغة العربية ومنها ما كتبه باللغة الإنجليزية، وقد حصل على عدد من الجوائز العالمية عن مُجمل كتاباته المفيدة التي كان يحرص على تزويدها بالرسومات المتنوعة التي يقوم برسمها بيده فتأتي تعبيراً صادقاً عن الواقع.

كان الدكتور شبر على الرغم من دراسته في الغرب وصلاته الكبيرة بجامعاته لا يتخلى عن تراثه العربي، فهو شديد الإعجاب بالمؤرخ والعالم العربي ابن خلدون، ينقل لنا أفكاره النيِّرة ويُثني عليه باعتباره عقلية عربية ناضجة فيقول: "إن عقلية ابن خلدون من النوع العبقري الذي يتجاوز

زمنه، فقد امتلك فهماً غير عادي للعناصر الفاعلة في زمنه، بل وكان سابقاً لزمنه.

وعندما انتقل من الولايات المتحدة الأمريكية اتجه إلى العمل في البلدان العربية، فكان في الفترة ما بين سنتي ١٩٥٦م و١٩٥٩م مُستشاراً في مجال تخطيط المدن والبحوث الإسكانية والتنمية الحضرية في كل من بيروت ودمشق والعقبة، والمملكة العربية السعودية.

هذا وقد نشرت عنه مجلة "التشكيلي" مقالاً قيماً عنوانه: (العمران في الكويت، قراءة في أوراق المعماري سابا جورج شبر)، وهو مقال استعرض كثيراً من أعمال الدكتور سابا، وأكد على الحركة العمرانية التي تمت في الكويت خلال وجوده فيها أو قبل ذلك بقليل، وقد كتب المقال الدكتور ياسر عثمان مُحرم محجوب، ومما جاء في المقال عن حركة البناء والتعمير في الكويت قوله: "يُعتبر ما مرت به الكويت (مُعجزة عمرانية) غير مسبوقة في التاريخ تم خلالها تحويل البيئة العمرانية في الكويت في فترة زمنية قصيرة من بيئة عمرانية تقليدية (محلية – تراثية) تتمثل في مساكن ذات أفنية (أحواش) داخلية مبنية من الأحجار البحرية والطين والأخشاب المستوردة لعمل الأسقف ومتلاصقة على جانبي طرق ضيقة ومتعرجة ومحاطة بسور ذي بوابات مبني من الطين لحمايتها من الاعتداءات الخارجية لبيئة عمرانية حديثة مُخططة ومُنفذة طبقاً لأحدث نظريات تخطيط المدن في ذلك الوقت بحيث اشتمل على تصورات لتنفيذ مجاورات (ضواحي) سكنية مُتكاملة، تتبع أحدث نظم تخطيط

المجاورات السكنية العالمية، أما خارج السور فينتقل إليها الكويتيون بحيث يتم إخلاء المدينة القديمة داخل السور لوضع الأساس لمنطقة وسط مدينة حديثة تحتوي على مبان عامة حكومية وإدارية ومناطق ترفيهية وخدمات عامة، وقد اشتمل المخطط الهيكلي الأول على تصور لإعادة تنظيم المدينة القديمة من خلال شق شوارع حديثة للسيارات مكان المساكن القديمة وهدم السور لإقامة منطقة خضراء عازلة بين المناطق السكنية ومنطقة وسط المدينة، كما تُعتبر السرعة التي تم بها تنفيذ ذلك المخطط من أسرع ما تم تنفيذه من مخططات هيكلية على مستوى العالم نظراً للجرأة التي تميَّزت بها إدارة الدولة في اتخاذ القرارات وتوافر الإمكانيات المادية اللازمة لتنفيذ تلك المشروعات الكبرى.

أما ما ورد في المقال المشار إليه بخصوص الدكتور سابا شبر فهو قوله: ومن أهم الأعمال التي قام بها د. شبر هو عمله في الفترة من ١٩٦٠م وحتى عام ١٩٦٨م مستشاراً في مجالي العمارة وتخطيط المدن لحكومة الكويت، بداية من خلال عمله في إدارة الأشغال العامة ثم مجلس التطوير وبلدية الكويت.

ومن خلال كتاباته عن تلك الفترة أوضح د. شبر التحول المفاجئ الذي شهدته الكويت خلال العقد الأول من تطورها العمراني خلال الفترة من ١٩٥٢م إلى ١٩٦٨م فقد اتضح له منذ اليوم الأول لوصوله الكويت أن ما يجري في الكويت ليس حدثاً عادياً وإنما هو ظاهرة

عمرانية تحدث بسرعة الضوء قلما يُمكن أن تتكرر في تاريخ تخطيط المدن. وقد شرع د. شبر منذ اليوم الأول في جمع كل المستندات والأوراق والخرائط والصور اللازمة لتوثيق تلك الفترة المهمة في ولادة وتطوير الكويت الحديثة.

وقد قام د. شبر بهذا العمل الكبير واضعاً في مقدمة أهدافه توفير مرجع للدارسين والمسؤولين الكويتيين في المستقبل عن الأحداث التي صاحبت نشأة وتطوير مدينتهم. وقد كان من مدعاة الفخر لدى د. شبر أنه شهد تلك الظاهرة الفريدة عمرانياً وإنسانياً من خلال بناء المساكن والمستشفيات والمدارس والمراكز الاجتماعية والعديد من المباني الأخرى اللازمة لتأسيس مجتمع حديث والتي تحدث على أرض عربية وبأموال عربية. وقد لفت د. شبر النظر إلى أن سرعة البناء والتطوير لم تكن خالية من السلبيات والمشكلات بل إنه تنبأ بالعديد من المشكلات العمرانية التي تُعاني منها الكويت اليوم.

تنتمي الكويت الحديثة لمجموعة خاصة من المدن المُخططة حديثاً مثل برازيليا وشنديغاره. وخلافاً للمدن العربية القديمة الأخرى مثل القاهرة ودمشق وبغداد والقدس وتونس التي احتوت على العديد من المناطق والمباني العامة التاريخية التي شكلت عاملاً مهماً في تطورها عبر عصور تاريخية مُتعددة، فالكويت لم تحتوِ إلا على عدد محدود من المباني العامة التاريخية حيث كانت أغلب مبانيها مساكن مبنية من الطين

والأحجار البحرية؛ مما شجع المُخطط الأول للكويت على إزالتها بالكامل وإحلال مناطق ومباني جديدة محلها.

ويُشير د. شبر الى سرعة البناء والتعمير التي خلفت وراءها مساحات فضائية شاسعة غير مُستغلة نتيجة الرغبة في الامتداد العمراني بسرعة خارج السور القديم. وتمثل هذه المساحات مشكلة عمرانية قائمة حتى اليوم حيث إنها تمنع التواصل الحضري للمدينة وتباعد بين مبانيها ومناطقها العمرانية وهي بالتالي لا تُشجع على الاعتماد على السير من منطقة لأخرى لوجود مساحات واسعة غير مأهولة بينها. وقبل أن يتم تعمير المناطق القريبة من وسط المدينة أولاً بدأ العمل في بناء المناطق البعيدة والمتطرفة؛ ففي الوقت الذي كانت تُعتبر فيه الجابرية وبيان من المناطق المُتطرفة خارج نطاق المدينة بدأ تنفيذ مُجاورة سكنية تحتوي على ٢٣٠٠ قطعة بالرميثية ومستشفى يضم ٥٠٠ سريرا بالجابرية.

كما نقل المقال عن سابا قوله عن الكويت: "إن القرن ونصف الذي استغرقته مدن أوروبا وأمريكا في الوصول إلى ما وصلت اليه تحت تأثير الثورة الصناعية استغرق أقل من عقد واحد للوصول إليه في الكويت تحت تأثير البترول وهو ما أدى لتحول مُفاجئ للمدينة والثقافة الكويتية. وقد ساعد على هذا التحول السريع استخدام مواد وطرق إنشاء حديثة مكنت من إنشاء مبان حديثة مُتعددة الطوابق ويتوفر فيها نظم التكييف والإضاءة والاتصالات، وهو ما أدى لعدم وضوح أخطائها في التعامل مع البيئة المُحيطة واستهلاكها لكميات هائلة من الطاقة.

يُضيف د. شبر قائلاً: "يجب في المستقبل أن يتم الاهتمام بصفة خاصة بوضع العناصر المعمارية بالنسبة لبعضها البعض وبالنسبة للفراغات المُحيطة بها وبالنسبة للفراغات التي يخلقها. إن هناك اهتماماً زائداً عن اللازم بترك مسافات فاصلة بين المباني وهو ما أخل بقواعد التصميم الحضري التي تعتمد على العلاقات الفراغية والمسافة والمقياس والنسب والتضاد".

كما يقول الدكتور ياسر في ختام حديثه (وهو بالمناسبة أستاذ بقسم العمارة بكلية الهندسة والبترول في جامعة الكويت): "إن الدكتور سابا شبر قد خلص فيما كتب إلى أن ما حدث في الكويت من هذه الناحية حتى سنة ١٩٦٤م كان عملاً مُبهراً تجاوزت فيه الجوانب الإيجابية ما به من سلبيات لا بد وأن توجد في عمل ضخم كهذا، وأورد الدكتور ياسر قول صاحبنا: "لقد تم تخطيط كويت المستقبل، ولكن تبقى حقيقة مهمة وهي أن كويت الماضي والكويتيين لم يتم أخذهم في الاعتبار، ومشكلاتهم لم تؤخذ بجدية عند استخدام القلم والمسطرة، والأدوات الهندسية لوضع مخطط كويت المستقبل. هكذا كان قدر الكويت الذي يجب علينا تقبله، وأن نعمل على إصلاحه عبر الزمن، على ألا نسمح بتكراره في المستقبل.

لقد كان مقال الدكتور ياسر عثمان محجوب بحثاً علمياً بمعنى الكلمة تناول فيه أطوار حياة الدكتور سابا شبر، وخلفياته العلمية

والعملية، ثم ركز على عمله في الكويت، واستمد من مؤلفاته كل ما يدل على عمله المُخلص لدولة الكويت.

كما اهتم الباحث الأستاذ محمد الأسعد بتراث الدكتور سابا شبر وكتب عنه أكثر من بحث، وكان مُعجباً به جداً، وذلك لأن هذا المعماري الفريد يستحق الإعجاب، وقد قال عنه: "هذا المعماري المولود في مدينة القدس في سنة ١٩٢٣م، الذي كرس الشطر الأعظم من جهده المعماري – أو كله بالأحرى – في التفكير بطابع المعمار العربي المعاصر الذي أراد له أن يكون في سمو وعظمة وشموخ الطابع الموروث، بعد أن أدرك أسرار وعناصر ذلك الطابع، وضرورته الجمالية، وكونه مُعبراً عن الطابع المحلي، ونابعاً من امكانات البيئة، وهو ما يُميزه بالبساطة والجمال والقدرة على تلبية الحاجات الإنسانية لساكن المدينة العربية.

ونعود للحديث عن إنتاج الدكتور سابا جورج شبر المكتوب والمطبوع، وأول ما يلفت النظر لمؤلفاته كتاب له صدر في سنة ١٩٦٧م، وقد تم نشر هذا الكتاب في الكويت باللغة الانجليزية، وهو بعنوان "النمو الحاضر للمدينة العربية"، وهو مُكون من خمسة أقسام تصب كلها في الموضوع العام الذي يُشير إليه عنوان الكتاب، وكان من حظ كتاب "النمو الحاضر للمدينة العربية" أن حظي بمقدمة لسمو أمير البلاد الأسبق الشيخ صباح السالم الصباح، وكان الأمير نفسه قد قدم لكتاب آخر للدكتور سابا شبر في سنة ١٩٦٤م وهو كتاب "المدينة

الكويتية" الذي صدر في السنة المذكورة، وقد أشاد الشيخ صباح السالم في تلك المقدمة باهتمام المؤلف بهذا الموضوع المُتعلق ببناء المدينة العربية على أسس سليمة تُحيطها من النواحي العلمية والعملية والاقتصادية والاجتماعية والهندسية والجمالية. وأشاد الشيخ أيضاً بحرص هذا المهندس على إثبات الناحية التراثية العربية والإسلامية في المباني مما يحفظ هذا التراث ويُبقيه مصدراً للإبداع الدائم.

ولما كان هذا الكتاب قد صدر قبل مدة طويلة، فإن من الملاحظ أن التعليقات التي أثارها مؤلفه والملاحظات التي دل عليها، قد أثبتت أهميتها في الوقت الحاضر مما دل على بُعد نظر هذا المعماري، وإدراكه الفذ لمادة عمله وقدرته الفائقة على قراءة المُستقبل فيما يتعلق بالمباني التي ستضمها المدينة العربية فيما يأتي من السنين، وهذا أمر من الأمور المهمة التي تُحسب له.

هذا الحديث يدعونا لمواصلة عرض ما بين أيدينا من كُتبه، وبخاصة منها ما طُبع في الكويت، وهي كُتب مُتميزة لا تزال الأفكار المطروحة فيها طازجة، ولا يزال كل مهتم بالدراسات المعمارية يقوم بالاطلاع عليها ومُتابعة ما فيها، بل وتطبيق النظريات التي تضمنتها على مشاهداته في المدن العربية وبخاصة مدينة الكويت التي عاش فيها صاحبنا وكتب عن المعمار فيها.

وإليك الكُتب التي وعدنا بعرضها مُرتبة بحسب سنة نشر كل كتاب منها:

أولاً: كتاب "وجوه المدينة".. وهو أحد كتب الدكتور سابا شبر المهمة، صدر في سنة ١٩٦٢م، وكان مُلحقاً لمجلة "الموظف" التي كان يُصدرها ديوان الموظفين في ذلك الوقت كل ثلاثة شهور، وكان رئيس هيئة الاشراف عليها هو الأستاذ حمد اليوسف العيسى، ورئيس تحريرها هو الأستاذ عبد الوهاب النفيسي. وقد جاء في كلمة التحرير ما يلي:

قلة من الناس هم الواعون لمشاكل تقلبات المدينة المُتعددة. فللمدينة عدة أوجه فيزيائية واجتماعية وجمالية وهي تحوي السكان والبنايات. والسيارات والأشجار والشوارع المُنسقة، وهي عدا هذا كله قلعة ضخمة من النحت الجماعي الذي يُثبت فيه الانسان قدرته على البناء والإبداع، وإنها نتاج جهد الانسان اليدوي على وجه الأرض ، ولكي نقدم المدينة للقارئ العادي فلقد طلبت مجلة الموظف من الدكتور سابا جورج شبر المهندس المستشار المعماري والتخطيطي في بلدية الكويت تحضير تخطيط إيضاحي لوجوه المدينة.

ويضم الكتاب ما يزيد على ثلاثمائة صورة رسمها المؤلف بيده، وهي تُمثل نماذج وأشكالاً مما تحتويه المدن من مبان مُختلفة. وهو يقول إن المدينة هي كل شيء، فهي الفن والتاريخ وهي الشعر والاقتصاد، وهي الهندسة والنحت، ويستمر في وصف ماهية المدينة التي تخصص في دراستها وتخطيطها مما يدل على أنه يُحب هذا الموضوع حُباً جماً. ولذا فيختصر حديثه قائلاً: .

باختصار فالمدينة صورة حقيقية للإنسان توضح انتصاراته وخذلانه، بإعطاء المعاني العميقة والشرح الوافي المؤدي لإنصافه وتقديره أو إدانته.

ثم يقوم سابا شبر بتقديم اللوحات التي رسمها وهي تأخذ الصفحات التي تبدأ بالصفحة رقم (١) وتنتهي في آخر الكتاب، وهي لوحات مُنوعة شاملة لعدد كبير من المباني المهمة التي فيها القديم وفيها الحديث، كما إنها مُختارة من عدد كبير من البلدان، وكانت الصفحات السابقة المحتوية على كلمة هيئة تحرير المجلة، ومقدمة المؤلف مرقمة بحسب الحروف الأبجدية.

والخلاصة أن الكتاب على صغره يدل على الجهد الكبير الذي بذله مؤلفه، فقرب لنا به الكثير مما يغيب عن أذهاننا من وجوه المدينة العربية وغير العربية.

ثانياً : كتاب "علم التنظيم وتطوير الكويت"، وألف سابا شبر هذا الكتاب في سنة ١٩٦٣م، وقامت بلدية الكويت بنشره في السنة ذاتها بمناسبة احتفال الكويت بعيد العلم، وفي شهر إبريل من السنة ذاتها. وتحدث المؤلف في كتابه هذا عن مدينة الكويت، وما حدث فيها من تطور بادئاً بمقدمة ذكر فيها شيئاً مما حدث خلال السنوات القليلة التي سبقت صدور هذا الكتاب. وتحدث عن المُخطط الهيكلي ذاكراً أن المسؤولين في دولة الكويت شعروا وهم يستقبلون عهد تطور حضاري كبير أنهم لا بد وأن يعملوا حساب المُستقبل فقاموا بالاتفاق مع إحدى

المؤسسات لكي تُقوم بوضع مُخطط يُهتدى به في القادم من السنين. وقد قدم صاحبنا تعليقات مهمة على المُخطط المذكور جاءت بقلم رجل على دراية تامة بعمله. كما قدم أفكاراً كثيرة للدراسة، وبصورة عامة فموضوع الكتاب مهم من حيث ما يحتويه من ملاحظات وانطباعات تتعلق كلها بتخطيط المدن فيما يتصل بالكويت بصورة خاصة.

ثالثاً: كتاب "العلم وتنظيم المدن العربية".. هذا الكتاب من أهم مؤلفات الدكتور سابا شبر، وأكثرها شمولاً، وذلك لأن مكتب العلاقات العامة ببلدية الكويت حتى يُقدم لنا هذا الكتاب قد قام بجمع وطبع عدد كبير من التقارير والمقالات والأبحاث التي كتبها الدكتور ونشرها في عدد من المجلات العربية والإنجليزية عندما كان خبيراً لتخطيط المدن لدى البلدية. ونشر الكتاب في أوائل ستينيات القرن الماضي.

يضم الكتاب مُقدمة وأربعة أجزاء كان الجزء الأول عن علم تنظيم المدن وعن السياسة الإسكانية في الوطن العربي، وعن المشكلات الحضرية التي تواجه المدينة العربية بصفة عامة، وعلى الأخص مُعاناة السكان من مُشكلتي المرور ومواقف السيارات. أما الجزء الثاني فقد تناول فيه الناحية العلمية في التنظيم، ليصل في الجزء الثالث لموضوع التنظيم في الكويت، وقد تحدث في هذا الجزء عن أمور كثيرة ذكر فيها التباين الحضري بين القديم والحديث، وطبيعة الجو في البلاد، وذكر إنشاء أول حديقة من نوعها في البلاد، وهي حديقة البلدية المقامة على انقاض المقبرة القديمة وتجدها على شارع فهد السالم، وتحدث عن

جزيرة فيلكا التي سماها فردوس الكويت المنسي. كما أورد حديثاً واسعاً عن تخطيط بعض المناطق السكنية التي كانت حديثة في ذلك الوقت. وعلى العموم فقد كان هذا الباب واسعاً شاملاً، ولم يترك فيه موضوعاً من الموضوعات المُتعلقة بالتنظيم في البلاد إلا وتطرق إليه. وعندما جاء إلى الجزء الرابع فإنه أراد أن يخرج عن النطاق الذي كان يسير حوله في الجزء الثالث فتحدث عن عدد من المدن العربية في المملكة العربية السعودية ومصر والأردن، وأنهاه بالحديث عن فلسفة ومُستقبل الهندسة.

إنه كتاب مفيد جداً على الأقل من حيث إحاطته بالصورة التي كانت تشمل مسألة تخطيط المباني والطرق في الكويت، كما تشمل إبراز ما يتمتع به صاحبنا من فكر نَيِّر وما يتميز به من إمكانات باهرة في مجال تخصصه الهندسي الفريد.

لم يكن ما قدمناه شاملاً لكل ما كتب وما ألف، فهو كثير الاطلاع قراءةً وتفحصاً، كثير الكتابة، وأظن أن كثيراً مما كتب يُمكن العثور عليه حالياً فأكثرهُ مطبوع في كتب أو مأثور في الصُّحُفِ المُتخصصة بل وغيرها من الصحف، مما يُهَوِّنُ أمر العثور على أكثر ما كتب إن لم نتمكن من العثور على كل إرثه الكتابي.

إنه (سابا شبر) المولود بالقدس عام ١٩٢٣ م؛ ودرس في مدرسة المطران وكلية تراسنطة ونال شهادة المترك سنة ١٩٤١م، وحصل سنة ١٩٤٤م على البكالوريا في الهندسة المدنية من الجامعة الأمريكية في بيروت، وفي سنة ١٩٤٦م حصل على بكالوريوس الهندسة المعمارية من

جامعة القاهرة وسافر في العام نفسه للولايات المتحدة لينال الماجستير بعد سنة عن أطروحته تصميم مباني كلية الهندسة في القدس وكان والده جورج شبر قد اشترى الأرض اللازمة لبناء جامعة القدس على جبل سكوبس والشيخ جراح بما في ذلك الملعب البلدي.

نال أيضاً الماجستير في تنظيم المدن والأقاليم سنة ١٩٤٨م، وفي سنة ١٩٥٦م نال شهادة الدكتوراه من جامعة كورنيل، وكان يومها أستاذاً في كلية الهندسة بالجامعة الأمريكية في بيروت.

وعُين سنة ١٩٥٩م مُديراً للمكتب الاستشاري في السعودية، وأصبح سنة ١٩٦١م مُساعداً لرئيس المهندسين في وزارة الأشغال العامة بالكويت ، وتوفي فجأة سنة ١٩٦٨م... ومن أبرز أعماله المهمة:

- التقرير السنوي الأول، ١٩٥٧م.
- وجوه المدينة، ١٩٦٢م (بالعربية والإنجليزية).
- علم التنظيم وتطور الكويت، ١٩٦٣م.
- العلم وتنظيم المدن العربية، نال جائزة جمعية أصدقاء الكتاب في لبنان.
- المدينة الكويتية، ١٩٦٤م.
- آفاق جديدة للمدن، ١٩٦٦م.

• النمو الحاضر للمدينة العربية، بالإنجليزية، ١٩٦٨م.

وما بين يديك هو كتاب قيم (مجموعة أبحاث لم تنشر في كتاب) في ذاته زاخر بما فيه من خبرات وتجارب قام بها الدكتور سابا شير الذي درس علمه في كُليات الغرب وتفوق عليهم؛ كما بتدريس هذا العلم في أعرق جامعاتنا نحن العرب الذين نشتاق لهذا النوع من العلوم الجادة التي تبني وتُنمي مُجتمعاتنا العمرانية التي في طور النمو والإزدهار؛ فانهل واغتنم من هذا الكتاب الذي يتحدث عن فن العمارة الذي قام به رجل عبقري بني وزاد من بنيان دولة الكويت التي يُشار لها بالبنان الآن بسبب تقدمها وازدهارها.

د. سعيد رضوان

أنوار ابن خلدون الضائعة
في فن العمارة وتنظيم المدن

قبل أن تصل العلوم والفنون المختلفة، الخاصة بتنظيم المدن وتخطيط الأقاليم والتصميم في الفن المعماري عند الغرب على مستواها الحالي، كان عليها أن تمر بمرحلة تطور بعد تجارب مريرة متعددة. ومع أن الثورة الصناعية في أوروبا ثم في الولايات المتحدة أتت بمزايا آلية ومنافع إنسانية، إلا أنها اصطحبت انحطاطاً في أحوال المعيشة يوماً بعد يوم. فكلما ازداد بناء المصانع وتكاثر الإنتاج، كلما كانت معاملة الأيدي البشرية العاملة أشبه بمعاملة قطيع من الماشية.

لقد غطت المباني الاستغلالية الكئيبة المنظر، المزدحمة كعلب السردين، مناظر الريف الطبيعية النضرة. ونمت المدن الصناعية بسرعة مذهلة في كل أرجاء إنجلترا وأوروبا والولايات المتحدة، وهي تغص بملايين العمال الذين جذبوا إليها من المزارع والقرى، سعياً وراء الرزق.

ولم يكن في بادئ الامر تشريع للأجور أو نظام للعمال أو حد أدنى لساعات العمل، مما جعل ملايين العمال تحت رحمة أصحاب المصانع ومقاولي البناء وأصحاب المساكن الذين استغلوا العمال بإسكانهم في منازل حقيرة، ثم حدثت اضطرابات سياسية عديدة في أوروبا أيقظت الإنسان إلى وجوب سن تشريعات تصلح الحالة الفاسدة، فعمدت الحكومة إلى صون حقوق العامل وبناء منازل للعمال ووضعت تخطيطاً للمدن فمازالت – إلى حد ما – اللطخات السوداء التي أوجدتها الثورة الصناعية.

كان تنظيم المدن قبل الثورة الصناعية بمثابة رياضة وتسلية للملوك والأمراء، فكان نمو المدن بطيئاً. أما اليوم فيستعان في تنظيم المدن والأقاليم بكثير من العلوم الحليفة كعلم الاجتماع، والاقتصاد والجغرافيا والهندسة وفن العمارة والمناظر الطبيعية والإحصاء والإدارة الحكومية.

وهذا أمر لم تتنبه إليه الحكومات العربية إلا قليلاً، ومنذ وقت قريب. وذلك بعد أن نمت بعض المدن نمواً عجيباً مذهلاً حمل المسؤولين إلى التخطيط السريع تحت وطأة الحاجة، وكأنما فاتهم أن مسألة العمران تقليد عريق في الثقافة العربية تجلى بكل ما فيه من محتوى معاصر في مقدمة ابن خلدون (١٣٣٢م – ١٤٠٥م)

ربما لم يسبق ابن خلدون غير أرسطوطاليس وأفلاطون إلى معالجة مشكلات المدن وما يتفرع منها. على أن هذين وسواهما مما سبقوا ابن خلدون كان اهتمامهم ينحصر – مبدئياً – باستراتيجية المدينة وشؤونها الحربية، بخلاف ابن خلدون الذي عالج الأجزاء المتشبعة والمرتبطة ببناء المدينة. ذلك أن مفهوم المدينة في نظره قد شمل الناس والمباني والهندسة والعمارة والثقافة والاقتصاد والإدارة. فالمدينة لم تكن شيئاً ساكناً ثابتاً يتكون من بعدين أو حتى ثلاثة أبعاد من التركيبات العضوية. ورغم أن كثيراً من آرائه تعد اليوم من المبادئ الأولية إلا أنه تنطبق على روح العصر الحالي؛ فهو يقول مثلاً: "أن البناء واختطاط المنازل إنما هو من منازع الحضارة التي يدعو إليها الترف والدعة كما قدمنا، وذلك متأخر عن البداوة ومنازعها، وأيضاً فالمدن والأمصار ذات هياكل وأجرام

عظيمة وبناء كبير وهو موضوعة للعموم لا للخصوص فتحتاج إلى اجتماع الأيدي وكثرة التعاون".

وهذا القول يصدق إلى حد بعيد، على المراكز الحضرية التي اقتضى إنشاءها اكتشاف النفط في شبه الجزيرة العربية. وهنالك ما يوجب الاهتمام في قوله أيضاً:

"أعلم أن المدن قرار تتخذه الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه فتؤثر الدعة والسكون والتوجه إلى اتخاذ المنازل للقرار، ولما كان ذلك القرار والمأوى وجب أن يراعى فيه المضار بالحماية من طوارقها وجلب المنافع وتسهيل المرافق لها، فأما الحماية من المضار فيراعى لها أن يدار على منازلها جميعاً".

هنا يذكر ضمناً، وربما للمرة الأولى في المؤلفات الحضرية، المفهوم المعاصر لتخصيص المناطق، هذا المفهوم الذي ظهر في أوروبا منذ حوالي ٨٠ سنة فقط. وقد يكون تخصيص المناطق وسيلة سلبية للصالح العام، يمكن بها إبعاد المباني المضرة بالصحة والمقلقة لراحة السكان. على أن ابن خلدون لم يأخذ بمثل هذه الإجراءات السلبية، بل آثر الإجراءات الإيجابية التي يمكن بفضلها التغلب على المباني المضرة بالصحة وإبعادها. وهي تفوق الإجراءات التي تطبق بواسطة الهيئات البلدية لحماية الحضر، ويقول في ذلك: "المنازع المفيدة تجلب وكل وسائل الراحة تجعل ممكنة الحدوث في المدن".

فلم تكن فكرة المدينة الحدائقية (التي سميت فيما بعد بالوحدات السكنية) ذات المنازع (أي المعالم) المفيدة قد عرفت بوضوح قبل ابنزر هاورد الإنكليزي باتريك جيدرز الأسكتلندي. وقد ساعد باتريك جيدرز في كتابه "تطور المدن" على إيجاد المركبات الاجتماعية لتخطيط المدينة، وذلك بعد تجارب كثيرة أجراها في الهند وفلسطين. ومن الواضح أن جيدرز قد اطلع بفهم على كتابات ابن خلدون. وقبل أن ابتدأ الأخصائيون اليوم يهتمون بالظواهر الجوية كالضباب الناتج عن دخان المصانع، حظيت من ابن خلدون بما لم تحظ به من مهندسي تخطيط المدن؛ ففي هذا الموضوع يقول:

"ومما يراعى في ذلك للحماية من الآفات السماوية طيب الهواء للسلامة من الأمراض فإن الهواء إذا كان راكداً خبيثاً أو مجاوراً للمياه الفاسدة أو مناقع متعفنة أو مروج خبيثة أسرع إليها العفن من مجاورتها فأسرع المرض للحيوان الكائن فيه لا محالة وهذا مشاهد. والمدن التي لم يراع فيها طيب الهواء كثيرة الأمراض في الغالب".

وقبل المدفع أو اختراع البارود، قال ابن خلدون:

"فيعتصم بذلك المصر ويغالبهم ومغالبة المصر على نهاية من الصعوبة والمشقة. والعصر يقوم مقام العساكر المتعددة لما فيه من الامتناع ونكاية الحرب من وراء الجدران من غير حاجة إلى كثير عدد ولا عظيم شوكة، لأن الشوكة والعصابة إنما احتيج إليها في الحرب للثبات لما يقع من بعد كره القوم بعضهم على بعض عند الجولة وثبات هؤلاء

بالجدران فلا يضطرون إلى كبير عصاي ولا عدد فيكون حال هذا الحصن ومن يعتصم به من المنازعين مما يقت في عضد الأمة التي تروم الاستيلاء ويحضد شوكة استيلائها".

ويكتب ابن خلدون سواء بمزاج تهكمي أو بعجرفة مقصودة، أو ربما بسبب رغبته في إعطائنا تقريراً صادقاً، فيقول:

"قدمنا ذلك في آثار الدولة من المباني وغيرها، وأنها تكون على نسبتها، وذلك أن تشييد المدن إنما يحصل باجتماع الفعلة وكثرتهم وتعاونهم فإذا كانت الدولة عظيمة متسعة الممالك، حصر القلعة من أقطارها وجمعت أيديهم على عملها وربما استعين في ذلك في أكثر الأمر بالهندام الذي يضاعف القوى والقدر في حمل أثقال البناء لعجز القوة البشرية وضعفها من ذلك كالمحال وغيره.

وربما يتوهم كثير من الناس إذا نظر إلى آثار الأقدمين ومصانعهم العظيمة مثل إيوان كسرى وأهرام مصر وحنايا المعلقة وشرشال بالمغرب، إنما كانت بفدرهم متفوقين أو مجتمعين، فيتخيل لهم أجساماً تتناسب ذلك أعظم من هذه بكثير في طولها وقدرها لتناسب بينها وبين القدر التي صدرت تلك المباني عنها، ويغفل عن شأن الهندام والمحال وما اقتضته في ذلك الصناعة الهندسية".

ومما يجدر ذكره أننا – بالرغم من نظرياتنا العلمية – ليس لدينا معلومات عن كيفية بناء أهرامات مصر، ويذهب ابن خلدون بعيداً في

البحث عن الاعتبارات التفصيلية لعلة وجود المدن، وتعتبر المقتطفات الآتية مهمة لتعريفنا بالمبادئ الأولية لقواعد اختيار الموقع بالنسبة للمدن.

إن الطريقة المضنية والباهظة التكاليف، وكذلك الدراسات العلمية المفصلة التي أجريت على نطاق كبير قبل اختيار الموقع الحالي لمدينة "برازيليا" تخطر حتما بالبال عندما نقرأ أقوال ابن خلدون ذات المغزى:

"أعلم أن المدن قرار تتخذه الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه فتؤثر الدعة والسكون وتتوجه إلى اتخاذ المنازل للقرار، ولما كان ذلك القرار والمأوى وجب أن يراعى فيه دفع المضار بالحماية من طوارقها وجلب المنافع وتسهيل المرافق لها.. فأما الحماية من المضار فيرعى لها أن يدار على منازلها جميعاً سياج الأسوار وأن يكون وضع ذلك في متمنع من الأمكنة: إما على هضبة متوعرة من الجبل وإما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة، فيصعب منالها على العدو ويتضاعف امتناعها وحصنها. ومما يراعى في ذلك الحماية من الآفات السماوية طيب الهواء السلامة من الأمراض فإن الهواء إذا كان ركداً خبيثاً أو مجاوراً للمياه الفاسدة أو منافع متعفنة أو مروج خبيثة أسرع إليها العفن من مجاورتها فأسرع المرض للحيوان الكائن فيه لا محالة وهذا مشاهد، والمدن التي لم يراع فيها طيب الهواء كثيرة الأمراض في الغالب..

وقد اشتهر بذلك في قطر المغرب بلد قابس من بلاد الجريد بإفريقية فلا يكاد ساكنها أو طارقها يخلص من حمى العفن بوجه، ولقد يقال أن ذلك حادث فيها ولم تكن كذلك من قبل، ويقول البكري في سبب حدوثه أنه وقع فيها حفر ظهر فيه إناء من نحاس مختوم بالرصاص فلما قض ختامه صعد منه دخان إلى الجو وانقطع وكان ذلك مبدأ أمراض الحميات فيه. وأراد بقالك أن الإناء كان مشتعلاً على بعض أعمال الطلسمات لوبائه وأنه ذهب مرة بذهابه فرجع إليها العفن والوباء، وهذه الحكاية من مذاهب العامة ومباحثهم الركيكة، والبكري لم يكن من نباهة العلم واستثارة البصيرة بحيث يدفع مثل هذا أو يشين خرفه فنقله مما سمعه.

والذي يكشف لك الحق في ذلك أن هذه الأهوية العفنة أكثر ما يعمل لتعفين الأجسام وأمراض الحميات ركودها، فإذا حللتها الريح وتفشت وذهبت بها يمينا وشمالاً خف شأن العفن والمرض البادي منها للحيوانات والبلد إذا كان كثير السكان وكثرت حركات أهله فيتموج الهواء ضرورة وتحدث الريح المتخلطة للهواء الراكد ويكون ذلك معيناً له على الحركة والتموج، وإذا خف الساكن لم يجد الهواء معيناً على حركته وتموجه وبقي ساكناً راكداً وعظم عفنه وكثر ضرره. وبلد قابس هذه كانت عندما كانت إفريقية مستجدة العمران كثيرة السكان تموج بأهلها موجاً؛ فكان ذلك معيناً على تموج الهواء واضطرابه وتخفيف الأذى منه فلم يكن فيها كثير عفن ولا مرض. وعندما خف ساكنها ركد هواؤها المتعفن بفساد مياهها فكثر العفن والمرض فهذا وجه لا غير. وقد رأينا عكس

ذلك في بلاد وضعت ولم يراع فيها طيب الهواء وكانت أولاً قليلة الساكن فكانت أمراضها كثيرة فلما كثر سكانها انتقل حالها عن ذلك، وهذا مثل دار الملك بفأس لهذا العهد المسمى بالبلد الجديد وكثير من ذلك في العالم فتفهمه تجد ما قلته لك. وأمر جلب المنافع والمرافق للبلد فيراعى فيه أمور منها الماء بأن يكون البلد على نهر أو بإزائها عيون مائية ثرة فإن وجود الماء قريباً من البلد يسهل على الساكن حاجة إملاء وهي ضرورية فيكون لهم في وجود مرفقة عظيمة عامة. ومما يراعى من المرافق في المدن طيب المراعي لسائمتهم إذا صاحب كل قرار لا بد له من دجن الحيوان للنتاج والضرع والركوب، ولا بد لها من المراعي فإذا كان قريباً طيباً كان ذلك أرفق بحالهم لما يعانون من المشقة في بعده. ومما يراعى أيضاً في المزارع فإن الزروع هي الأقوات فإذا كانت مزارع البلد بالقرب منها كان ذلك أسهل في اتخاذه وأقرب في تحصيله، ومن ذلك الشجر والحطب والبناء؛ فإن الحطب مما تعم البلوى في اتخاذه لوقود النيران للاستنارة والطبخ، والخشب أيضاً ضروري لسقفهم، وكثير مما يستعمل فيه الخشب من ضرورياتهم..

وقد يراعى أيضاً قربها من البحر لتسهيل الحاجات القاسية من البلاد النائية. إلا أن ذلك ليس بمثابة الأول، وهذه كلها متفاوتة بتفاوت الحاجات وما تدعو إليه ضرورة السكن. وقد يكون الواضع غافلاً عن حسن الاختيار الطبيعي أو إنما يراعي ما هو أهم على نفسه وقومه ولا يذكر حاجة غيرهم كما فعله العرب لأول الإسلام في المدن التي اختطوها بالعراق وإفريقية؛ فإنهم لم يراعوا فيها إلا ما عندهم من مراعي

الابل وما يصلح لها من الشجر والماء الملح ولم يراعوا الماء ولا المزارع ولا الحطب ولا مراعي السائمة من ذوات العلف ولا غير ذلك كالقيروان والكوفة والبصرة وأمثالها، ولهذا كان أقرب إلى الخراب ما لم تراع فيها الأمور الطبيعية.

ومما يراعى في البلاد الساحلية التي على البحر أن تكون في جبل أو تكون بين أمة من الأمم موفورة العدد تكون صريحاً للمدينة متى طرقها طارق من العدو والسبب في ذلك أن المدينة إذا كانت حاضرة البحر ولم يكن بساحتها عمران القبائل أقل العصبيات ولا موضعها متوعر من الجبل كانت في غرة للبيات وسهل طروقها في الأساطيل البحرية على عدوها وتحيطه لها لم يأمن من وجود الصريخ لها وأن الحضر المتعودين الذين قد صاروا عيالا وخرجوا عن حكم القافلة وهذه كالإسكندرية من المشرق وطرابلس من المغرب وبولة وسلا، ومتى كانت القبائل والمصائب موطنين بقربها بحيث يبلغهم الصريخ والنعير وكانت متوعرة المسالك على من يروعها باختطافها في هضاب الجبال، كان لها بذلك منعة من العدو ويئسوا من طروقها لما يكابدونه من وعرها وما يتوقعونه من إجابة صريخها كما في سبتة وبجاية وبلد أثقل على سفرها فاقهم ذلك واعتبره في اختصاص الإسكندرية باسم الثغر من لدن الدولة العباسية مع أن الدعوة من ورائها ببرقة وإفريقية، وإنما أعتبر في ذلك المخالفة المتوقعة فيها من البحر لسهولة وضعها، ولذلك والله أعلم كان طروق العدو للإسكندرية وطرابلس في العطلة مرات متعددة والله تعالى أعلم".

إن استشهاد ابن خلدون بأهمية المياه العذبة والمراعي وحقول الزراعة والغابات، ينطبق تماماً على الكويت. كان حدثاً صغيراً في مجرى حياة الكويتيين عندما استطاعوا مجابهة قسوة الحياة قبل ظهور النفط الذي أضاف على الحياة في الكويت نعمة لا تقدر. وعلى شاطئ الخليج العربي صوب الجنوب، استطاع سكان المملكة العربية السعودية، ممن يسكنون القطيف أو الهفوف، التغلب على صعوبات الحياة بفضل امتثالهم للقواعد المذكورة أعلاه.

وعلينا أن ننتظر لنرى كيف سينطبق النظر على الفعل في بناء عاصمة البرازيل الجديدة، ونحن نأمل بأن المبالغ الطائلة التي صرفت على الاستطلاعات العلمية داخل البلاد البرازيلية للبحث عن موقع، وكذلك المبالغ التي صرفت لبناء العاصمة، لن تذهب هباء. فلنا في بعض المدن العربية مثل على الصراع في سبيل البقاء، نتيجة خطأ اختيار مواقعها، على غير ما أدركه ابن خلدون.

ولابن خلدون ملاحظة ثاقبة على ما يستشهد به في أيامنا، كمناظر طبيعية أو عوامل إقليمية أو النظر في حجم السكان فإن كل ولاية من الولايات المتحدة الأميركية ترسل اثنين من الشيوخ إلى البرلمان كي يصدأ أو يعالج ما يقوله ابن خلدون فيما يأتي:

"ولهذا تجد الأمصار التي في القاصية ولو كانت موفورة العمران تغلب عليها أحوال البداوة تبعد عن الحضارة في جميع مذاهبها بخلاف المدن المتوسطة في الأقطار التي هي مركز الدولة ومقرها وما ذلك إلا

لمجاورة السلطان لهم وفيض أمواله فيهم كالماء يخضر ما قرب منه لما قرب من الأرض إلى أن ينتهي إلى الجوف على البعد".

ولا ريب أن العرب من غير سكان العواصم يوافقون على ما قاله ابن خلدون؛ فمدينة القدس، لبعدها عن مركز الحكم، أصبح في المقام الثاني بعد عمان. وكذلك طرابلس التي لا تني – بين الحين والآخر – ترفع أحزانها إلى الحكومة المركزية في بيروت وتتهم بيروت باحتكار اهتمام الحكومة المركزية. والأمثلة على ذلك كثيرة في العالم العربي، حيث توضع المشروعات لتوطين البدو، أي تحضيرهم؛ فقد بات واضحاً أن إهمال الأطراف البنائية من البلاد خطأ من النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

إن إدراك ابن خلدون للعلوم الاجتماعية التي "تكتشفها" جامعات العالم اليوم، مستعينة بـ "المساحات" و"الأبحاث" و"الأسئلة" و"التحاليل التعدادية" و"الآلات الإحصائية" إلخ.. يعتبر إدراكاً بعيد الأثر، من ذلك قوله:

"إن الاجتماع الإنساني ضروري، ويعبر الحكماء من هذا بقولهم الإنسان مدني بالطبع، أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم، وهو معنى العمران".

وفي موضع آخر يتحدث ابن خلدون عن الزمن الذي استغرقه بناء الآثار الإنسانية الكبرى، كالأهرامات، والمساجد، والكاتدرائيات. وفي

النبذة الآتية يوضح لنا المآثر الهندسية غير المعروفة نسبياً، والتي أخذ العرب على عاتقهم بناءها:

"الهياكل العظيمة جدا لا تستقل ببنائها الدولة الواحدة؛ والسبب في ذلك ما ذكرناه من حاجة البناء إلى التعاون، ومضاعفة القدر البشرية، وقد تكون المباني في عظمتها أكثر من القدر مفردة أو مضاعفة كما قلنا فيحتاج إلى معاودة قدر أخرى مثلها في أزمنة متعاقبة إلى أن تثمر فيبتدئ الأول منهم بالبناء ويعقبه الثاني والثالث وكل واحد منهم قد استكمل شأنه في حشر الفعلة وجمع الأيدي حتى يتم القصد من ذلك ويكمل. ويكون ماثلاً للعيان، يظنه من يراه من الآخرين أنه بناء دولة واحدة، وأنظر في ذلك ما قاله المؤرخون في بناء سد مأرب وأن الذي بناه سبأ ابن يشحب وساق إليه سبعين وادياً وعطله الموت عن إتمامه فأتمه ملوك حمير من بعده".

ثم يلقي ابن خلدون الضوء على ما نسميه اليوم "الإدارة البلدية"، وهي شأن من شؤون العمران يكاد يعمر في بعض المراكز الحضرية العربية الحالية، فهو يقول في وصف ما يسميه "المصالح العامة"

"أما الحسبة فهي وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين، يعين لذلك من يراه أهلاً له فيهيئ فرضه عليه ويتخذ الإخوان على ذلك ويبحث عن المنكرات ويعزز ويؤدب على قدرها ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة مثل المنع من المضايقة في الطرقات ومنع الحمالين وأهل

السفن من الإكثار في الحمل والحكم على أهل المباني المتناهية للسقوط بهدمها وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة والمضرب على أيدي المسلمين في المكاتب وغيرها في ضربهم للصبيان المتعلمين. ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداء بل له النظر والحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك ويرفع إليه وليس له أعضاء الحكم في الدعاوى مطلقاً بل فيما يتعلق بالغش والتدليس في المعايش، وغيرها في المكاييل والموازين وله أيضاً حمل المماطلين على الإنصاف، وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع بيئة ولا إنفاذ حكم، وكأنها أحكام ينزه القاضي عنها لعمومها وسهولة أغراضها فتدفع على صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لنصب القضاء".

هذا القول ينطبق على ميثاق حقوق الإنسان الذي وضعته الأمم المتحدة، فلو وجدت السلطة لتنفيذ ما للإنسان من حقوق، لما وجدنا ما يؤسف له، كالحمالين والفعلة المرهقين العاجزين، وكانهيار المنازل على ساكنيها بين الحين والحين، وكضرب التلاميذ في بعض المدراس، وكالغش في المعاملة، وما إلى ذلك. وكم كانت المجالس البلدية العربية تكسب عطف المواطن العربي لو أنها خصصت – من ضمن موظفيها – مفتشين أو مراقبين أكفاء ومدربين يحولون دون الاعتداء على حقوق الإنسان. ورغم أن بعض البنود في مقدمة ابن خلدون تذكر مفتشي البناء، فإن قوانين المباني ولوائحها ونظم تفتيشها أصبحت بالية في معظم المدن العربية اليوم.

لم يبدأ المهندسون بتبويب المدن تبعاً لنوعها وحجمها وطبيعتها إلا في المدة الأخيرة، وكذلك الاشتغال بدراسات مقارنة ومترابطة عن المدن. أما ابن خلدون فقد ربط الأسس الاقتصادية بالحجم الحضري، فتنبأ بوقوع تلك التكتيلات الهائلة، مثل طوكيو ونيويورك ولندن وموسكو وبرلين وباريس وغيرها، وثمة اليوم أقوال أبسط وأوضح عن تلك التكتيلات يطرحها في وضع النهار العلماء الباحثون الاجتماعيون، وتعتبر هذه الأقوال كمصطلحات أو معادلات أو نظريات أو مبادئ في علم الاجتماع. وفي هذا يقول ابن خلدون، بلغة عميقة المعنى بعكس تفوهات اليوم التي عمقها من كونها تخفي تجريفاتها في معنى غامض:

"إن كان أمد الدولة طويلاً ومدتها منفسحة فلا تزال المصانع فيها تشاد والمنازل الرحيبة تكثر وتتعدد ونطاق الأسواق يتباعد ويتفسح إلى أن تتسع الخطة وتبعد المسافة وينفسح ذرع المساحة كما وقع ببغداد وأمثالها. ذكر الخطيب في تاريخه أن الحمَّامات بلغ عددها ببغداد لعهد المأمون خمسة وستين ألف حمام وكانت مشتملة على مدن وأمصار متلاصقة ومتقاربة تجاوز الأربعين ولم تكن مدينة وحدها يجمعها سور واحد لإفراط العمران".

"إن تفاضل الأمصار والمدن في كثرة الرزق لأهلها وإنفاق الأسواق إنما هو في تفاضل عمرانها في الكثرة والقلة".

قد يستنتج من هذا أن ابن خلدون كان يفكر في مدينة كـ "لوس أنجليس" عندما كتب ما كتب. ألا يدل كلامه على الاهتمام الزائد –

اليوم – بالتخطيط الإقليمي؟.. لقد نمت المدن في زمانه بطريقة معقولة ومقبولة لتغطي مساحات شاسعة. ونحن نعرف أن "بغداد" هارون الرشيد كانت في وقت ما مدينة كبرى. وفي المائة سنة الماضية نمت كثير من مدن العالم زيادة عن حدودها الثابتة لتصبح (على سبيل التعبير المجازي) أبعد من كل قياس، شأن الكويت والرياض، مثلاً.

كان لابن خلدون فراسة وبعد نظر، وملاحظات واستقصاءات عميقة؛ فلا تزال تصدق ملاحظاته التي دونها في مقدمته – إلى يومنا هذا – وخصوصاً على العالم العربي. كذلك إدراكه وفهمه للبدو ولصفاتهم الاجتماعية المفضلة ومميزاتهم وعاداتهم وطبيعتهم؛ فهو يقول: "أن البدو أقدم من الحضر وسابق عليه، وأن البادية أصل العمران، والأمصار مدد لها" ثم يذكر الشرح الآتي الذي يمكن التحقق منه بسهولة: "إن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر". وكذلك: "إن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر". وقد يتمكن الباحثون الاجتماعيون من عمل مساحات بين قطاعات البدو الذين قد يستقرون أو يرغمون على الاستقرار في البيئات الحضرية، وذلك بعد ظهور النفط في العالم العربي، بعد مرور أكثر من ٦٠٠ سنة على ميلاد اين خلدون. ولعل إغراء المدنية لن يكون قوياً جداً لدرجة يؤثر فيها على البدوي فيطرح عن نفسه طيبتها ويحد من ميله للشجاعة والحرية واجتذاباتها الغامضة.

إن العمل المربح يكمن في الوسائل والأساسيات التي بها ينتشر العمل ويجعل العيش مالئاً الفراغ، أو تسلية ولهواً لأعضاء المجتمع وعلى

أية حال فإن ابن خلدون يقول عن ذلك: "إن الصنائع إنما تكمل بكمال العمران الحضري وكثرته". ويعالج ابن خلدون كثيراً من حرف عصره كالتوليد والنجارة والزراعة.. الخ. أما ملاحظاته عن فن العمارة فإنها تستحق الدراسة:

- "هذه الصناعة أو صنائع العمران الحضري وأقدمها، وهي معرفة العمل في اتخاذ البيوت والمنازل للسكن والمأوى للأبدان في المدن، وذلك أن الإنسان لما جبل عملية بين الفكر في عواقب أحواله لا بد أن يفكر فيما يدفع عنه الأذى من الحر والبرد".

- "كل مدينة على ما يتعارفون ويصطلحون عليه ويناسب مزاج أهوائهم واختلاف أحوالهم في الغنى والفقر".

عندما تدرك أن مدن العالم العربي التي شيدت في الأزمنة الحديثة لم تراع فيها ضروريات المناخ (ولا نقول شيئاً عن دقائق المناخ) فإننا نعجب لهذا السلف الذي أدرك مثل هذه العوامل الحيوية، كالحرارة والبرودة (أي المناخ) وقوة تأثيرها على فن العمارة. ومع ذلك فإننا نرى، خصوصاً في العالم العربي، من يحاولون خلق فن من العمارة الفاسدة والمستوردة والخليعة التي يقول عنها ابن خلدون: "وأهل هذه الصناعة (أي البناء) القائمون عليها متفاوتون، فمنهم البصير الماهر ومنهم القاصر".

وهكذا يصدر ابن خلدون حكمه على المعماريين في فترة من أعظم الفترات التي نشط فيها البناء. وكان المعماريون ذوو الدرجة الثانية – عند ابن خلدون – أحط المعماريين، وذلك لاعتدائهم على المنظر الحضري العربي. ثم يتكلم كأشبه ما يكون بأستاذ عظيم في إحدى الجامعات الكبرى اليوم، فيقول:

"والهواء الأعلى والأسفل ومن الانتفاع بظاهر البناء مما يتوقع معه حصول الضرر في الحيطان فيمنع جاره من ذلك إلا ما كان له فيه حق ويختلفون أيضاً في استحقاق الطرق والمنافذ للمياه الجارية والفضلات المسربة في القنوات وربما يدعي بعضهم حق بعض في حائطه خشية سقوطه ويحتاج إلى الحكم عليه ببيعه ودفع ضرره عن جاره عند من يراه أو يحتاج إلى قسمة دار أو فرصة بين شريكين بحيث لا يقع معها إفساد في الدار ولا إهمال لمضمونها وأمثال ذلك، ويخفي جميع ذلك إلا على أهل البصر العارفين بالبناء وأحواله المستدلين عيها بالمعاقد والقسط ومراكز الخشب وميل الحيطان واعتدالها وقسم المساكن على نسبة أوضاعها ومنافعها وتسرب المياه في القنوات مجلوبة ومرفوعة بحيث لا تضر بما مرت عليه من البيوت والحيطان وغير ذلك فمنهم بهذا كله البصر والخبرة التي لغيرهم وهم مع ذلك يختلفون بالجودة والقصور في الأجيال باعتبار الدول وقوتها".

ويستطرد ابن خلدون (وكأنه يرجع لنا ذكريات الدراسة عن إقليدس وأرشميدس واكتشافاتهما) فيقول: "وقد يعرف صاحب هذه الصناعة

أشياء من الهندسة مثل تسوية الحيطان بالوزن وإجراء المياه بأخذ الارتفاع وأمثال ذلك؛ فيحتاج إلى البصر بشيء من مسآلة وكذلك في جر الأثقال بالهندام فإن الأجرام العظيمة إذا شيدت بالحجارة الكبيرة بعجز قدر الفعلة عن رفعها إلى مكان من الحيط فيتخيل لذلك بمضاعفة قوة الحيل بإدخاله في المعالم من أثقاب مقدرة على نسب هندسية تصير الثقيل عند معافاة الرفع خفيفاً؛ فيتم المراد من ذلك بغير كلفة، وهذا إنما يتم بأصول هندسية معروفة متداولة بين البشر وبمثلها كان بناء الهياكل المماثلة لهذا العهد التي يحسب أنها من بناء الجاهلية، وأن ابدانهم كانت على نسبته في العظم الجسماني وليس كذلك وإنما تم لهم ذلك بالحيل الهندسية".

ولم تغترب أمكنة العبادة (التي تعد ملاج روحية للإنسان في عالم مسئول) عن بال ابن خلدون، ولو أنها غالباً ما تغرب عن خاطر معظم مخططي المدن اليوم، فيقول في ذلك:

"اعلم أن الله سبحانه وتعالى فضَّل من الأرض بقاعاً اختصها بالتشريف وجعلها مواطن لعبادته يضاعف فيها الثواب ويثمر بها الأجور، وأخبرنا بذلك على ألسن رسله وأنبيائه لطفاً بعباده وتسهيلاً لطرق السعادة لهم، وكانت المساجد الثلاثة هي أفضل بقاع الأرض حسبما ثبت في الصحيحين وهي مكة والمدينة وبيت المقدس. أما البيت الحرام بمكة فهو بين إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه أمره الله ببنائه وأن يؤذن في الناس بالحج إليه فبناه هو وابنه إسماعيل –كما نصَّ القرآن – وقام

بما أمره الله فيه وسكن إسماعيل به مع هاجر ومن نزل معهم من جُرهُم إلى أن قبضهما الله ودفنا بالحجر منه، وبيت المقدس بناه داود وسليمان عليهما السلام أمرهما الله ببناء مسجده ونصب هياكله ودفن كثير من الأنبياء من ولد إسحاق عليه السلام حواليه. والمدينة مهاجر نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه أمره الله تعالى بالهجرة إليها إقامة دين الإسلام بها فبنى المسجد الحرام بها وكان مسجده الشريف في تربتها فهذه المساجد الثلاثة قرة عين المسلمين ومهوى أفئدتهم وعظمة دينهم".

وبعد ستمائة سنة، وبعد أن سمح لكثير من بيوت الله أن تخرب وتصبح مظلمة بسبب التضخم الحضري، فإن المؤتمر الدولي لتنظيم المدن والمشاكل الاجتماعية الذي عقد في القاهرة في ديسمبر ١٩٦٠م، وجد من الضروري عند معالجته موضوع "العواصم الجديدة في العالم العربي" أن يدخل ضمن قراراته الأساسية الفرار الآتي بالنسبة للمسجد:

أ) لما كان المسجد يعتبر جزءًا حيوياً من التكوين الاجتماعي للبيئة العربية، فينبغي إعطاؤه اعتباراً خاصاً عند تخطيط المدن.

ب) ينبغي تشجيع الاتجاه لإحياء الاستعمال التقليدي للمسجد لا كمكان للعبادة فقد بل كمركز للنشاط التربوي والاجتماعي.

ج) لقد صممت كثير من المساجد واختير موقعها في الأصل بحيث تظهر كنصب تذكارية جميلة في المدن، ولكنها اليوم سدت عن

الرؤية.. يجب هدم هذه العوائق لتعطي المسجد اعتباره الجمالي المنشود.

ويقول ابن خلدون عن الملكية ومستندات البناء والمساحة وبيوع الملك الحضري، وكذلك المشكلات التي تنجم عن الإرث:

"وقد يقال من أخذ نفسه بتعليم الحساب أول أمره أنه يغلب عليه الصدق لما في الحساب من صحة المباني ومناقشة النفس فيصير ذلك خلقاً ويتعود الصدق ويلازمه مذهباً ومن أحسن التآليف المبسوطة فيها لهذا المعهد بالمغرب كتاب الحصار الصغير، ولابن البناء المراكشي فيه تلخيص ضابط لقوانين أعماله مفيد ثم شرحه بكتاب سماه رفع الحجاب وهو مستغلق على المبتدئ بما فيه من البراهين الوثيقة المباني، وهو كتاب جليل القدر أدركنا المشيخة تعظمه وهو كتاب جدير بذلك وإنما جاءه الاستغلاق من طريق البرهان ببيان علوم التعاليم لأن مسائلها وأعمالها واضحة كلها وإذا قصد شرحها فإنما هو إعطاء تعلل في تلك الأعمال وفي ذلك من العسر على الفهم ما لا يوجد في أعمال المسائل فتأمله والله يهدي بنوره".

"ومن فروعه أيضاً المعاملات، وهو تصريف الحساب في معاملات المدن في البياعات والمساحات والزاكوات وسائر ما يعرض فيه العدد من المعاملات يصرف في صناعتنا ذلك الحساب في المجهول والمعلوم والكسر والصحيح والجذور وغيرها والغرض من تكثير المسائل المفروضة فيها حصول، والدوبة بتكرار العمل حتى ترسخ الملكة في

صناعة الحساب ولأهل الصناعة الحسابية من أهل الأندلس تآليف فيها متعددة من أشهرها معاملات الزهراوي وابن السمح وأبي مسلم بن خلدون من تلميذ مسلمة المجريطي وأمثالهم (ومن فروعه أيضاً الفرائض). وهي صناعة حسابية في تصحيح المهام لذوي الفروض عند اجتماعها ونزاحها على المال كله أو كان في الفريضة إقرار وإنكار من بعض الورثة من كل من يعلن مصححاً حتى تكون حظوظ الوارثين من المال على نسبة مهامهم من جملة سهام الفريضة فيدخلها من صناعة الحساب جزء كبير من صحيحه وكسره وجذره ومعلومه ومجهوله، وترتيب على ترتيب أبواب الفرائض الفقهية ومسائلها فتشتمل حينئذ هذه الصناعة على جزء من الفقه وهو أحكام الوراثة من الفروض والعلل والإقرار والإنكار والوصايا والتدبير وغير ذلك من مسائلها".

وهو عندئذ يسجل الملاحظة الآتية: "إن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره وأنه مؤذنة بفساده". وهذه التي تنطبق على الشرق العربي: "إن السعادة والكسب إنما يحصلان غالباً لأجل الخضوع والتملق، وأن هذا الملق من أسباب السعادة".

هذه الأقوال المقتطفة كتبت قبل اكتشاف أميركا وقبل الثورات الفرنسية والأميركية والروسية أو الحروب الأهلية. كتبت قبل "لوك" و"فولتير" و"جيفرسون" و"ماركس"، وقبل ما يسمى "العهد العلمي" أو الثورة الصناعية.

ولعله من الواجب على أمانة جامعة الدول العربية أن تدعو إل مؤتمر ثقافي عربي في ذكرى ميلاد ابن خلدون لدرس أقواله بطريقة كالتي تدعو فيها دول الغرب للعالم لزيارته موطن غوته وبيتهوفن لتكريمهما، لأنه من المؤكد أن عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي يستحق على الأقل اعتراف هذا الجيل من العرب الذين لهم الحق بأن يكونوا فخورين به.

المدينة الحديثة
أجواؤها وبيئاتها

إن المدن – خاصة في هذه الأيام – تواجه موجات متلاحقة من التطور والنمو وتتكيف حسب الظروف التي يفرضها ازدياد عدد السكان والنمو الاقتصادي وتغير التكنولوجيا. ولكي يكون هذا البحث مجدياً علينا أن نفترض وجود نقطة ثابتة بين "القديم" و"الحديث"، فلننتقل منها إلى افتراض وجود بيئة ثابتة نتيجة للتوازن آنذاك. وهذه طريقة لتبسيط التعقيدات الكامنة في هذا الموضوع، وذلك بأن تفترض جدلاً أن البيئة تظل ثابتة عند تلك النقطة، بينما القوى البشرية تمضي في تقلباتها. وللدلالة على ذلك يمكننا القول بأن ما يهمنا في الموضوع هو البيئة القديمة والبيئة الحديثة، بغض النظر عن فترة الانتقال بينهما، وهي الفترة التي خلت من التخطيط والتي كان يعتمد فيها على مبدأ التجربة والخطأ. وبعبارة أخرى فإن تلك الفترة، بالرغم من أنها كانت لها بيئة، إلا أن هذه البيئة لم يتوفر لها الوقت الكافي حتى تستمر. وتجد أمثلة على هذا النوع من البيئة في المدن التي تجرى فيها عمليات إعادة التنظيم بسرعة ونشاط، مثل: الكويت وبيتسبرغ ولندن، حيث لا تزال البيئة في تطور مستمر.

وينطبق هذا الوضع على عدد كبير من المدن الأوروبية التي لم تستكمل تطورها التنظيمي بشكل طبيعي، ولن يكون من الإنصاف أن نحكم على مظاهر ومميزات البيئة قبل أن نعطي عملية التنظيم الوقت الكافي لتقدم انتاجها، في الكويت مثلاً، تجري عملية تطوير المدينة القديمة، وفي شيكاغو يعاد بناء المدينة القديمة، وفي ميونيخ كذلك. وهذا لا يعني أنه ينبغي تجاهل البيئة في الوقت الذي يتم فيه هذا

التحول، لأن ذلك يناقض مبدأ عمومية البيئة، ولكنه مجرد وسيلة تساعد على تحديد بعض النواحي المختلفة فيها.

وعلى وجه العموم فإن العوامل التي تؤثر في تكوين البيئة تقسم إلى فئتين رئيسيتين: العوامل الداخلية، والعوامل الخارجية، وتعني بالعوامل الخارجية العوامل الطبيعية، مثل المواد والنواحي المتطورة والمحسوسة؛ وبالعوامل الداخلية نعني النواحي التي تكمن في أعماق الإنسان، وهي نزعاته ومشاعره النفسية وقيمه وأذواقه الخ، بالنسبة إلى تنظيم المدينة، الأمر الذي يختلف تماماً في كل فرد عنه في الفرد الآخر. وهذه الناحية هي الأصعب تحديداً، لأنه لا يوجد مقياس علمي عام يكمن أن تقاس به إمكانيات وطاقات الفرد للعمل أو رد الفعل عنده تجاه الموضوع، إلا في حدود ما توصلنا إليه كثير يخضعون لأنظمة من صنعهم تحكم قواعد السلوك الاجتماعي، تلك القواعد التي يعتبر تطبيقها شاملاً ضمن إطار المجتمع إذا لم يكن ضمن الإطار الحياتي والنفسي للأفراد.

أما من ناحية العوامل الداخلية فلا حاجة لتأكيد أهمية المزايا السلوكية للأفراد في هذا الموضوع الحساس؛ فالبيئة والنشأة والقوانين والأخلاق والآداب العامة وما شاكلها، وهي جميعاً عوامل تكييف تلعب دوراً فعالاً في تصرفات الأفراد، الإرادية وغير الإرادية، عندما يحددون مواقفهم في ميدان تقييم بيئة المدينة وإيجادها وتكوينها، ذلك الميدان الذي نسميه – لغرض التبسيط – ميدان التجميل، حيث تبرز النواحي العاطفية والنفسية بالإضافة إلى النواحي الطبيعية.

وهذا الميدان واسع ومعقد جداً، ولكن بالرغم من هذا فإنه في كثير من الحالات تبرز فيه استنتاجات متجانسة للتفاعلات المتشابهة. فلماذا يحدث ذلك؟ وكيف يحدث؟ ولمن يحدث؟ ومتى يحدث؟ وبالأحرى: ما الذي يحدث؟ أن هذه أسئلة وجيهة يجيبنا عليها علماء الجمال؛ فنحن لا نستطيع الخوض في مجال تشعب مظاهر السلوك الإنساني أو البحث في نظريات علم الجمال كعلم قائم بذاته، ولكننا نكتفي بالقول بأن الإجابة على هذه الأسئلة تقع في الغالب بين أقصى طرفي القضية بالرغم من أن هذا الافتراض يتسم بطابع تخميني محض لا يستند إلى أي أساس علمي؛ فالمدينة تشمل من الناحية الطبيعية معالم تدخل في تركيب بيئتها. ويمكن تقسيم هذه المعالم إلى فئتين: طبيعية، واصطناعية. وتعني بالعالم الطبيعية النسمات الجغرافية والطوبوغرافية والعوامل المناخية؛ بينما تشتمل المعالم الاصطناعية على أثر التاريخ من جهة، وإنجازات الإنسان، كالمباني والجسور والشوارع والأفنية مضافاً إليها شرائع المجتمع التي تتمثل في القوانين والأنظمة والعادات، من جهة أخرى. وهذه المعالم لا يمكن أن تنفصل عن بعضها البعض، حيث أن المدينة لا يمكن أن تقوم مالم تتحد المعالم الخارجية والداخلية سويا، في الوقت الذي تتأثر فيه العالم الخارجية على حد كبير بالمواد الخام، أعني المواد الطبيعية في الموقع. ومع ذلك فلا شك أن العوامل الداخلية لها أثر كبير على ما يقوم به الإنسان لتشييد المدينة، فإن من الواضح تماماً أن المدينة التي تقام على أرض منبسطة تكتسب بطبيعة الحال خصائص معينة تميزها عن المدينة التي تقام على أرض جبلية، وتبعاً لذلك نرى

المدينة البيئية في جزيرة تختلف عن المدينة الساحلية أو المدينة التي تقام على ضفة نهر، كما أن المدينة الواقعة على خط الاستواء تختلف تماماً عن تلك التي تقام على جبال الألب. وكذلك المدينة المعاصرة التي تم نموها على مراحل منذ قديم الزمان تختلف إلى حد كبير من حيث تكوينها الطبيعي عن المدينة الحديثة التي نشأت من لا شيء والتي تمت بسرعة هائلة لسبب أو لآخر.

إذاً نستطيع أن نقول أن الميزات الطبيعية، كالطبوغرافيا والجيولوجيا والارتفاع ودرجة خط العرض وتجمعات المياه والاخضرار والتربة، لها علاقة مباشرة وأثر كبير على تكوين البيئة: إذا هل كانت زوريخ ولوسيون وغيرهما من المدن السويسرية لتملك السحر الذي يتوفر لها حالياً، بدون تلك البحيرات القريبة منها والأنهار التي تصب في تلك البحيرات والجبال المحيطة بها؟ وهل كانت القاهرة وباريس وبوسطن لتكون كما هي عليه الآن لو لم تكن ضفاف الأنهار التي تخترق هذه المدن جزءًا مهمًا من أجزائها؟ وهل كان يمكن لبيروت أن تكون هكذا بدون موقعها الطبيعي؟

للنظر إلى الأكواخ التي يقطنها سكان المناطق المتجمدة، والخيام التي تعيش فيها سكان المناطق الحارة، وتجمع هذه وتلك بشكل يوجد بيئة خاصة لكل منهما. والمتصور أيضاً أن المدن الأوروبية القديمة ومدن الشرق الأوسط التي نمت وتجاوزت حدود أسوارها القديمة ولكن بشكل لا يختلف عن تكوين أجزائها القديمة. ويظهر ذلك جلياً للغاية في مدن

كالقدس ودمشق والقاهرة وروما، حيث لا تزال معالم الأسوار القديمة بادية للعيان بكليتها أو بجزء منها، مع العلم بأن مثل هذه الأسوار قد تلاشت في بعض المدن الأوروبية مثل فيينا، ولكن حلت محلها السيجات التي لا يمكن إنكار ما لها من أثر على بيئة تلك المدينة في الوقت الحاضر، وهذا الشيء بعينه ينطبق بحق على "الجزام الأخضر" والطرق الدائرية لمدينة الكويت الصحراوية الفريدة في نوعها.

إن الطبيعة تلعب دوراً أساسياً في تكوين كل مدينة تقريباً، وبناء عليه نقول أن العوامل الطبيعية التي تلعب دورًا مهمًا في تكوين مظاهر المدينة تكون في كثير من الحالات هي نفس العوامل التي تقرر موقع هذه المدينة، فالبيئة الخارجية لمدينة نيويورك وجزيرة مانهاتن وامتداد المياه حولها كانت السبب في اختيار الهولنديين القدامى لهذا الموقع بالذات مسكناً لهم. ولا تزال هذه البيئة نفسها تضفي على المدينة والجزيرة جلالها المهيب المتمثل في ناطحات السحاب والجسور والكورنيش وخليج عدن، وهي بيئة ممتازة بامتدادها بقدر ما تمتاز البيئة الداخلية للمدين بكونها فريدة النوع. ولا يجدر بنا أن ننسى أثر المناخ على بيئة المدينة، فالأمطار والضباب والرطوبة والحرارة وأشعة الشمس والغيوم والجفاف، كل هذه تلعب دورها في تكوين البيئة؛ فاستمرار وجود الضباب وسقوط رذاذ المطر يتميز به جو مدينة لندن، والجفاف وصفاء الجو من مميزات مدن حوض البحر الأبيض المتوسط، والحر اللافح والرطوبة تتصف بهما مدن الخليج العربي.

ويؤثر المناخ كذلك على الهندسة المعمارية، وعلى عادات السكان التي تؤثر بدورها في تكوين البيئة. ولنتخيل الأماكن المكشوفة والمظلمة في أحد شوارع مدينة ما في الشتاء وفي الصيف، وكيف يتجمهر الناس في هذا الجانب ويبتعدون عن ذاك او يتركون هذا ويلجأون إلى ذاك .

ونكتفي هنا بهذا القدر من الإمكانيات التي تقدمها الطبيعية لإنشاء المدينة، ولننتقل لبحث ما يقدمه الإنسان. فهنا قوة غامضة ومعقدة تستخدم طاقاتها المدمرة والخلاقة، منفصلة أحياناً ومجتمع أحياناً، لإيجاد البيئة الطبيعية التي تبدو أكثر وضوحاً في المدينة منها في الريف، لأن هذه القوى تكون أكثر تركيزاً في المدينة، إذ ما دام الإنسان يجري وراء منفعته العامة فإنه يؤثر شعورياً أو لا شعورياً في البيئة الطبيعية التي يعيش فيها وفي الأشخاص التي يختلط بهم. غير أن النتائج التي يحققها لا تكون عادة نتائج مثالية، لأن هنالك فرقاً بين ما يحققه الإنسان وما يصبو فعلاً إلى تحقيقه. إنه حر في عمل ما يشاء، ولكن ضمن حدود القوانين والأعراف والعادات التي فرضها عليه المجتمع، ووفقاً لما تسمح به الظروف والإمكانيات والقوى العاملة والمواد الخام وخصائصها. وحينما تمارس هذه العوامل أثرها مجتمعا، يكون الإنسان قد أوجد شيئاً: جسراً أو بيتاً أو شارعاً أو عامود مصباح كهربائي أو إشارة مرور أو مسجداً او كنيسة أو مدرسة أو مكتب بريدا أو ممراً أو حديقة أو نصباً تذكارياً أو نافورة، وما إلى ذلك. وبالحقيقة يكون أوجد مدينة، سواء أكانت مدينة كبيرة أو ضاحية.

إن منجزات الإنسان تتألف من الأشياء الملموسة: من الخشب والحجارة والمعدن والزجاج والأسمنت والطوب، إلخ. في الأزمنة السابقة كان استعمال مواد البناء ينحصر في المواد المتوفرة آنذاك، فكان ما بين التهوين كانوا يستعملون الآجر المجفف تحت حرارة الشمس، وسكان بلاد اليونان كانوا يستعملون الرخام كما أن سكان المستعمرات الأمريكية استعملوا الخشب لبناء بيوتهم، وسكان فلسطين استعملوا الحجارة وتبعاً لذلك كانت مظاهر المدينة تتقرر إلى حد كبير بوجود المواد الأساسية للبناء. أما اليوم فلم يعد الإنسان يعتمد كلياً على وجود المواد محلياً، ولذلك نجد مظاهر المدن الحديثة في تغير تدريجي مستمر. إذ أن زيادة استعمال المدن والزجاج والأسمنت وإنتاج هذه المواد بكميات هائلة وسرعة توزيعها بفضل توفر وسائل فعالة للنقل، قد أحدثت تغيرا جذرياً في مواطن المدن الحديثة وظواهرها. وقد بلغ إنتاج هذ المواد درجة كبيرة بحيث أصبح استعمالها عاماً في كل مدينة أو قرية أو ضاحية. ونخرج من هذا بنتيجة واضحة. وهي أن الإنسان يصوغ ويكون ويصنع هيكل بيئته بنفسه وبأقصى ما يملك من جهد، مواجهاً في ذلك كثيراً من العوامل الحقيقية. فهو يوجد البيئة الملائمة الجديرة بالتقدير، والبيئة الوسط التي لا تحظى بكبير اهتمام، ثم البيئة السيئة التي لا تستدعي الانتباه.

إن ما نتحدث عنه هو المنجزات الملموسة التي حققها الإنسان، فنحن نتكلم عن الهندسة المعمارية بشتى فروعها، عن الشوارع الفخمة والأزقة المظلمة، عن القصور والأكواخ، عن المدن الكبرى والقرى الصغيرة، عن السكة الحديد، وعن المساحات المترامية وعن مركز

المدينة، نتحدث عن الشارع المحاط بالحوانيت على الجانبين وعن السوق الرئيسي الكبير في المدينة وعن المناطق السكنية الفسيحة والأحياء المزدحمة. إن كل هذه الأشياء هي من صنع الإنسان الذي تتفاوت قدراته وطاقاته من التليفزيون على الطاقة الذرية إلى الصواريخ يطلقها إلى القمر، ومع ذلك فهو عاجز عن أن يعالج ذلك السرطان الاجتماعي الوبيل: الحي القذر، عاجز عن تنظيم حركة المرور بشكل جميل، وعن إيجاد مساحات صغيرة يخصصها لتجميل المدينة ليبث في الناس السرور والارتياح بعيداً عن المنفعة الشخصية والكسب المادي.

ويجدر بنا هنا أن نؤكد أهمية الهندسة المعمارية والتكنولوجيا، وننوه بالدور الذي تلعبانه في تكوين البيئة، إذ أنهما من المقدمات المهمة لفكرة وجود البيئة. فإذا أخذنا مثلا هيكل بانكوك والجدار الزجاجي لمبنى هيئة الأمم المتحدة في نيويورك، لاحظنا فروقاً شكلية محسوسة وأخرى نفسية شعورية تكمن في الشكلين، هذا بالإضافة إلى أنه برزت حديثاً تصاميم هندسية مبتكرة لا نجد الوقت الكافي لتقدير مدى أثرها في نفوسنا من الناحية العمرانية والجمالية على السواء، ومع ذلك فإننا لا نعدم وجود شعور لدينا بأن هنالك تغييراً ملموساً يوشك أن يطرأ على مدننا وعلى بيئاتنا الإقليمية، إذ يبدو لنا أن الجو وحده هو الحد الذي يضعه المهندس المعماري لميدان عمله.

وعندما نتأمل في إمكانيات الألوان ومواد البناء الصناعية الجديدة فإنه سرعان ما يتبادر إلى أذهاننا أن عيوننا سوف تبذل جهداً كبيراً

لتتكيف حسب الألوان والتصاميم والأذواق الجديدة التي ستوجد دون شك عنصراً جديداً في دنيا العمران "ألا وهو طواعية مرونة الهندسة المعمارية. وهذا ما يحدد إلى مدى بعيد أحاسيس الأفراد تجاه البيئة، وعندما نذكر المهندسين المعماريين لا تغفل في الوقت ذاته مهندسي الحدائق العامة والمتنزهات ومهندسي المناطق الصناعية ومهندسي المرور ثم النحاتين والرسامين والسياسيين. إن جدول أعمال مهندسي التنظيم المشتغلين بتنظيم مدننا وقرانا التي تتألف منها بيئتنا، جدول غير محدود؛ فهم يقومون بأدوار تنظيمية وعمرانية وسياسية لتحسين بيئاتنا" غير أن منجزاتهم هذه قد تحسن البيئة أحياناً وقد تشوهها أحياناً أخرى.

ومن هنا لا نستطيع أن نغالي في تقدير قيمة مسؤولية ودور مهندس التنظيم في هذا العمل المعقد. ثم أن الإنشاءات والآراء العمرانية المتطورة المجسمة في مبنى هيئة الأمم المتحدة في نيويورك أو عمارة ستاركو في بيروت، أضفت على البيئة أحاسيس جديدة وأصبحت مثلاً يحتذى بالنسبة للمناطق المجاورة. وقياسا على هذا: من يستطيع أن يقدر مدى أثر منشآت خليج بوسطن الجميل عند المشاهد إذا ما قادته بمنظر مركز المدينة الصاخبة، أو يتصور كم تكون جميلة المنطقة التجارية المركزية في الكويت إذا ما أعيد تنظيمها؟

وجدير بنا أيضاً ألا ننسى أن وراء هذه التغييرات، التي يترجمها إلى أعمال فريق المهندسين المعماريين ومهندسي تنظيم المدن، قوى مهمة جداً: هي حاجة الإنسان والعقل المتحضر والوعي الاجتماعي

والاعتبارات السياسية والمنفعة الشخصية مع شيء من حب المغامرة. هذه هي القوى – محسومة أو غير محسومة، حقيقة أو خيالية رفيعة أو وضيعة – التي تعمل إما منسجمة أو متنافرة، وما البيئة إلا التعبير المادي الصريح عن نتاج هذه القوى المتصارعة أو المنسجمة. وكلما تقدمنا في فهم هذه القوى ازددنا نفاذا إلى عود الأساليب المعقدة التي يتم بها تكوين البيئة الجميلة المنسقة والقيمة الجمالية الملازمة لها. ومن حسن الحظ أن التقدم في هذا الاتجاه قد قطع شوطاً بعيداً بفضل ذلك الجيش الكبير من المصلحين ومهندسي التنظيم وعلماء الاجتماع وعلماء النفس والمهندسين المعماريين وغيرهم.

لقد اقتصر بحثنا إلى الآن على المدينة بصفتها كياناً تاريخاً جغرافياً يملك ميزات معينة ناشئة عن صفات جوهرية أو عن تجارب وتصاميم وأعمال قام بها الإنسان. ومن المؤكد أن هذه التجارب والأعمال غير منفصلة تماماً عن القوى الأخرى الخارجية عن نطاق سيطرة الإنسان، ولا حاجة بنا في هذه التجارب والأعمال غير منفصلة تماماً عن القوى الأخرى الخارجة عن نطاق سيطرة الإنسان، ولا حاجة بنا في هذا المجال أن نخوض في جدل فلسفي عما إذا كان الإنسان سيد أعماله أم لا.

ويكفينا القول بأن الإنسان يفعل ضمن حدود معينة من العرف والقانون والعادة، ولا بد والحالة هذه من أن تطرأ عليه ظروف تكون في كثير من الأحيان خارجة عن نطاق سيطرته. هذا هو نصف القصة بالنسبة

للبيئة، والنصف الآخر الذي يعادله في الأهمية هو الإنسان نفسه؛ فمما لا شك فيه أنه لا يوجد شخصان اثنان يتأثران نفس التأثر لدى مشاهدتهما ظاهرة كسوف الشمس مثلاً، كما يقول علماء النفس، بالرغم من أن علماء الفلك يستطيعون أن يحددوا بالضبط موعد وقوع الكسوف. وعليه يمكننا القول بأنه توجد في العالم تأثرات تجاه البيئة بقدر ما فيه أناس. وإذا كان الأمر كذلك فإنه يترتب علينا أن نعد من الأبحاث عن البيئة ما هو مساو لعدد سكان العالم!

ومن ناحية أخرى لا يزال كثير من الناس يعتقدون بأن البيت المبني على النمط القديم مريح أكثر من البيت الحديث؛ لذلك لا غرابة أن تجد أن كثيرين من سكان مدينة واشنطن من المقيم خارج قسم جورجتاون من تلك المدينة يودون لو تتاح لهم الإقامة في هذا القسم، ويغبطون ساكنيه على حسن حظهم في الإقامة هناك. ومثل هذا الوضع موجود في معظم مدن العالم. وما يقال عن هذه يقال أيضاً عن المساحات العامة في روما وفي سواها. وهذا الشعور العام لدى سكان هذه المدن بأنها ذات بيئة جيدة، لا يستند إلى أي أساس علمي، خاصة إذا علمنا أن مناطق السكن الفسيحة والأقل ازدحاماً من سواها غالباً ما يشار إليها بأنها تفتقر إلى مقومات البيئة العصرية. فهل يعود ذلك إلى نواح اجتماعية معينة تطغى على تفكير السكان، أم أنه مجرد اعتقاد بأن المدن تزداد اتساعاً مع الزمن وتكتسب ميزات خاصة من الجمال والسحر والألفة؟ فإذا صح ذلك فلا بد أن نستنتج أن الزمن وحده هو الذي يكون البيئة، وهنا لا يسع المرء وهو يتأمل هذه الفكرة إلا أن يعيد

في مخيلته ذكر المناطق السكنية المزدحمة التي سبقت الإشارة إليها على أنها ذات بيئة جذابة وأن المناطق الفسيحة لا يمكن مقارنتها بها. وهذا لا يعني بالطبع الأماكن المزدحمة التي تنتشر فيها الأقذار وإنما الأماكن النظيفة فقط. على أن الدراسة النفسية والاجتماعية للسكان قد تلقي بعض الضوء على مختلف النزاعات السائدة لدى بني البشر، وهو نزعات لا تحددها مقاييس أو آراء.

وقد برزت هذه الصفة بصورة خاصة في الأحياء القديمة من المدن العربية؛ فالأسواق العامة والميادين والساحات والأماكن المزدحمة والأحياء السكنية القديمة تعتبر لدى سكانها أكثر جمالاً ورونقاً من المناطق الفسيحة المنظمة التي جهد المهندسون غاية الجهد لجعلها جميلة جذابة. ولنأخذ مثلاً الأحياء السكنية الجديدة في بيروت (وهي مزدحمة طبعاً) وفي الكويت (حيث لا ازدحام) وفي دمشق (كثافة السكان معتدلة). لنجد أنها رغم حداثتها ومجاراتها لأنظمة السكن الحديثة لا تقارن من وجهة نظر سكان تلك المدن بالسحر والجاذبية التي تتمتع بها بيئة الأحياء القديمة في المدن نفسها؛ فسكان بيروت يعتبرون المناطق السكنية القديمة الجاذبة للبحر في مدينتهم أجمل الأمكنة هناك، بينما ينظرون إلى المباني الجديدة وكأنها نشوة منظر البحر الجميل.

وفي الكويت أيضاً، بالرغم من ملايين الدنانير التي أنفقت في بناء هذه المدينة الصحراوية، فإنه لا توجد فيها، من وجهة نظر سكانها،

منطقة تضاهي الواجهة البحرية على "السيف" القديم، لا من الناحية الجمالية ولا من ناحية البيئة. وفي دمشق لا يقارن سحر وجمال "أبو رمان" بالمنطقة المحيطة بجامع أمية. وهذا لا ينطبق على شواطئ البحر الأبيض المتوسط والخليج العربي فحسب وإنما ينطبق أيضاً على شواطئ المحيط الأطلسي حيث تقع طنجة والدار البيضاء. وهذه الظاهرة إذا ما تم تحليلها من ناحية سيكولوجية يمكن أن تفسر على أنها التعلق بالموروث والحنين إليه، إذ أن المدينة الحديثة تفتقر إلى التقارب الإنساني وليست لها البيئة الاجتماعية المتوفرة للمدينة القديمة، فمدينة البندقية لا يمكن أن تكون كما هي حتى لو كانت مزدحمة بالسيارات ومليئة بالطرق المتفرعة كما هو الحال في الكويت.

ويقودنا هذا إلى الاستنتاج بأن هنالك أحاسيس عامة متشابهة لدى البشر تتفاوت في درجة مرونتها، ولكنها تتفق إلى درجة أنها تبقى، وتكمن وراءها عدة اعتبارات جديرة بالدراسة والبحث، إذ أن الإنسان مجموعة فريدة من الأحاسيس والآراء والنزعات والأفكار ذات الأبعاد الشاسعة والأغوار العميقة.

وللشروع في هذا التحليل يمكننا الافتراض بأن الأمريكيين – على سبيل المثال – يؤولون إلى بني جنسهم أكثر مما يأنسون إلى الهنود أو الصينيين مثلاً، وكذلك الألمان بالنسبة للفرنسيين. وهكذا، ففكرة التآلف والعيش مع الجماعة لها أثرها الفعال على الناس بالنسبة لتأثرهم بالظواهر الخارجية المتماثلة؛ فالمجتمع يفرض على الأفراد قواعد وأعرافا وعادات

كثيرة. عدا ما تفرضه العوامل التاريخية والسياسية والاجتماعية التي تميز شعباً ما عن آخر، وعندما تلتقي الجماعات المتشابهة في المفاهيم والعادات والنظم، في حين أن النواحي العلمية والعملية لهذه الجماعة أو تلك قد تتفاوت إلى حد كبير.

وتزداد هذه العملية تعقيداً (أو تبسيطاً) بعملية الانخراط في البيئة أو توارث العادات والتقاليد عن الآباء والأجداد، وهي عملية مستمرة وبالغة التعقيد؛ فحين تنشأ لدى الواحد منا بعض الأذواق والميول فإنه يحاول التعبير عنها بصور مختلفة، كالبناية مثلا، وبذلك يزيد العملية تعقيداً بإدخال عنصر جديد. وطبقاً لقانون المعدلات نجد أن بعض مظاهر بيئتنا تتفق وأذواقنا؛ ولذلك نحبها، إلا أن هذا التعليل هو تبسيط للأمور أكثر مما يجب.

وإذا تابعنا التحليل من هذه الناحية ندخل بالضرورة إلى علم اللغة وعلم تطور معاني المفردات، لتؤكد أنه لا توجد تعابير مسلم بها تحدد بالضبط انفعالات وتأثرات الأفراد؛ لذلك يكون من الأنسب أن نبحث ما يعتقد بأنه ظواهر عامة تتأثر بها جميعاً بصور مختلفة.

إن مبدأ السلامة والاطمئنان – جسديا واقتصاديا – مبدأ عزيز وقريب إلى كل قلب؛ فالسلامة ترتبط بها عناصر البقاء، كالغذاء والراحة والمأوى والعمل والوقاية الصحية والتآلف مع الجماعة؛ فنحن نشعر بالضياع إذا ما كنا في وسط صحراء أو محيط، أو نشعر على الأقل بعدم

الاطمئنان، ولكن ما أن يبدو لنا شيء محسوس في تلك المتاهات المخيفة، كساري سفينة مثلاً أو شجرة نخيل، حتى نبدأ نسترد اطمئناننا.

وفي اعتقادي أن طباع الفرد وتصرفاته تتأثر بالجو العام للبيئة التي يعيش فيها سواء كان ذلك بوعي منه أو بدون وعي، وكل عنصر من عناصر ذلك الجو له أثره الخاص بالنسبة للفرد. وهكذا لا بد أن تكون أحاسيس الأفراد تجاه شيء ما مختلفة عن بعضها نظراً لاختلاف الجو الذي يكتشف البيئة التي يعيشون فيها؛ فالشعور بالوحدة شعور ودي إلى الحد الذي يبدأ عنده الملل والضيق. وفي المدينة نجد أن الجو وتفاعلاته ولانسجام الجو واتزانه أثراً على تصرف الفرد بهذا الشكل أو ذاك تجاه بيئته وعلى خلق حالات نفسية مختلفة عنده.

وهنالك صفة أخرى يتميز بها الإنسان، وهي ميله إلى قياس الأشياء بالنسبة لحجمه هو وبالنسبة لإمكانياته في تفسير وتكييف المحيط الذي يعيش فيه؛ فإذا ما صادفته عفية لا يستطيع التغلب عليها فإنه يشعر بالقلق والضيق النفسي والنقمة. وهنا يأتي دور المقدر عل تكييف نفسه حسب البيئة، قد تطول هذه العملية ويطول معها تقلب الحالات النفسية والانفعالات والتصرفات؛ فمقياس البيئة وتدرج هذا المقياس من عنصر إلى عنصر وانسجام التحول ونسبة المقاييس.. كل هذه ظواهر متقلبة بالنسبة للإنسان، وينشأ هذا التقلب من التغير الطفيف الذي يحدث في زاوية الرؤية عند الإنسان، هذا إذا أغفلنا أثر التغيرات التي تطرأ على وضعه.

وهذا الإحساس المتقلب لا يفقد أياً من عناصر المشهد نفسه، إذ أن ما يفتقد شعورياً يلتقط ويسجل لا شعورياً. ولا حاجة للقول بأن الأشجار وأرصفة الشوارع والأضواء الخفاقة ولعدة إشارات المرور والمباني والناس، كل هذه تدخل في الصورة لتنعكس كلها على شاشة الرؤية. وتضاف إلى هذه عناصر أخرى تزيد من أثرها لدى الفرد، وهذه العناصر هي صفاء الجو لمعانه والظل واللون والسطوح المعاكسة. ولنأخذ مثلاً واحداً على هذه العناصر وأثرها، وذلك يلاحظه تغير جو المدينة خلال النهار حيث صخب الناس والسيارات وأثناء الليل خاصة إذا أن أسوارها غير موزعة بالشكل المناسب. ولنلاحظ في هذا الحال تقلب حالات الناس نفسياً وتغير نظرتهم للجو حينما تكون المدينة تزخر بالصخب والضجيج وحينما يخيم عليها السكون.

إن منظر المدينة ليلاً، وجوها في الليل حيث تكون الأحياء مضاءة بأنوار مختلفة، يبرزان الدور الحساس الذي يلعبه اللون والضوء في تكوين بيئة المدينة. وهذا ينطبق أيضاً على "صوت المدينة"، أو بعبارة أدق "ضجة" المدينة. فهل يصح الاستنتاج بأن أصوات المدينة، أعني ضجيجها. تسهم في تكوين بيئتها؟ نقول نعم، دون أن نحاول التغلغل في هذا الموضوع.

أما فيما يتعلق باللون فهناك اختلاف بين في البيئة داخل المدين وخارجها، ويبدو ذلك بصفة خاصة في بعض المناطق حيث يتغير لون الأشجار بدرجة ملحوظة، ويبدو هذا التغير ظاهراً حين تتعرى تلك

الأشجار من أوراقها فتترك المدينة جرداء إلى حد ما. وهذا ما يلاحظ بصفة خاصة في مدينة واشنطن المسماة بمدينة الأشجار؛ فهذه المدينة يتغير مظهرها وبيئتها عندما تتعرى أشجارها في الشتاء تماماً كما يتغير مظهرها تبعاً لكون الكونغرس متعقداً أو غير متعقد. إن هذه العناصر الصغيرة لا حصر لها. ولنورد أمثلة قليلة على هذا، تذكر نيوأورلينز في آخر أيام الكرنفال، والكويت خلال الصيف، وكلمة المدن خلال أيام الاحتفالات حين تكون مزدانة بمختلف أنواع الزينة. وهنا تدخل الصفات الإنسانية في الموضوع؛ إذ عندما يرى المرء مدينة جديدة لأول مرة يتكون رأيه بالنسبة لها ويحدد موقفه منها؛ فإن تجاربه (سهولة التنقل، ومعاملة الناس له، ووجود الأصدقاء والأقارب فيها.. إلخ) تساعد الإنسان الغريب على تكييف نفسه حسب البيئة الجديدة التي يجد نفسه فيها. وهذه ظاهرة مهمة جداً، إذ كثيراً ما نسمع الناس يقولون: "لقد عشنا في ذلك المكان سنوات عديدة ولكن لا فائدة منه". بينما يقول الآخرون: "نحن وكأننا عشنا هنا العمر كله". وعلى الرغم من أن هذا المقياس ليس مقياساً موضوعياً للحكم على بيئة "مدينة ما" إلا أنه عنصر مهم في تحديد موقف الفرد من الجو الموضوعي للمدينة التي يعيش فيها.

وهنالك عوامل شخصية واجتماعية لها أثرها الكبير في تحديد آراء الفرد وحكمه على الوضع الجديد الذي يجد نفسه فيه؛ فالأشياء التي رافقت طفولته، والقيم الاجتماعية السائدة في بيئته، هي التي توحي إليه كيف يجب أن تكون البيئة الجميلة. وهنالك حقيقة ثابتة يمكن أن تقدم

دليلاً على هذا الاتجاه، وهي أن فئة معينة من المجتمع، كالفنانين مثلاً، غالباً ما ترغب في الإقامة في أحياء معينة من المدن، وهذه الحقيقة تعكس دون شك تلك النزعة الإنسانية التي تجعل المرء يألف شبيهه في الرأي والعادة والمهنة أكثر مما يألف الآخرين. ويضاف إلى ذلك أن المستوى العلمي للفرد، والأوساط الاجتماعية التي يتنقل بينها، وآراء الشخصية في الحكم على الأمور. قد تنشط أو تضعف قدرته على ملاحظة بيئته وتقييمها ونقدها، غير أنه لا ينتج عن ذلك بالضرورة أن الإنسان ذا الموهبة الفنية يكون في الغالب أكثر تحسسا لبيئته. بل أن الواقع هو أن مواهب الفرد تضخم بالنسبة له تلك العناصر التي يميل إليها بحكم طبعه، وهو مبدأ عام ينطبق على جميع الناس ضمن القرائن العامة.

إن سيكولوجية الملاحظة قد تلقي كثيراً من الضوء على هذه الناحية من التشابه وعدم التشابه في الانفعالات، إلا أن الطريق المؤدي إلى النتائج المرجوة هو دون شك طريق شائك وممل. فهذا ميدان يتطلب بحوثاً عملية دقيقة لا يستطيع مهندس التنظيم ذو الميول الفنية فقط أن يخوض فيها بالشكل الصحيح. إنه ميدان واسع وجدلي، إذ تشمل أبعاده تلك العناصر المعقدة، كالإنسان، والقيم الجمالية في مجتمع ديناميكي سريع التحول، والحكم على قيمة الشيئ، إلخ. وهنا يبرز السؤال: هل يمكن لقوى الملاحظة والذوق الجمالي عند الإنسان أن تقاس بمقاييس علمية؟ ويجب أن تتم الإجابة على هذا السؤال على أساس الملاحظة والتجربة المستندين إلى أساس علمي. وتتشعب هذه التجربة مع الزمن

نتيجة البحوث العلمية التي يجريها أكبر عدد ممكن من الباحثين ذوي الاتجاهات المختلفة على أكبر عدد ممكن من البشر.

وعلى الرغم من التقدم التكنولوجي الهائل الذي أحرزه الإنسان، ومن التزايد الواسع في عدد المؤسسات المتجردة عن الأهواء الشخصية، فإن الناس لا يزالون عاطفيين. وهذا عامل مهم جداً على ما نعتقد، ولا نستطيع تعريفه أو قياس أبعاده أو تفسيره على الوجه الضخم، فالحكم النهائي على الأشياء الجميلة ينبع من داخل الإنسان نفسه، على الرغم من روعة الفن فيها ومن الفنانين الذين أبدعوها. وما الدوامة الحديثة (والقديمة أيضاً) التي تكتشف الفن والموسيقى والرقص إلا ظاهرة لا تفسير لها لكنها بدورها تفسر المعنى التالي: وهو لماذا يعتبر خليج بك بي في بوسطن – مثلاً – غنياً بجمال البيئة بينما لا تعتبر المدينة الجديدة كذلك على الرغم من أنها قد صممت على أساس علمي تنظيمي سليم؟ إن هذا الأمر ليعتبر تحدياً كبيراً لمهندسي التنظيم، إذ هل يفترض فيه أن "يبني" البيئة في المدينة الجديدة أو في المنطقة المجاورة لها؟ وهل بإمكانه أن يفعل ذلك لو شاء؟ وإذا كان بالإمكان تحقيق ذلك غاية بيئة عليه أن "يبني"؟ هل تحفة فنية أو لوحة زيتية أم تمثال منحوت لتناسب أذواق هواة الفنون الجميلة؟ وهل يعني ذلك أننا لا نستطيع أبداً أن نوجد البيئة الساحرة الجذابة التي وجدت في غابر الأزمان؟

وهل المصادفة وعدم التخطيط هما اللذان يخلقان البيئة الجميلة المحببة إلى النفوس؟ أم أننا تسرعنا في الحكم على منجزاتنا؟.. هل

يمكننا اعتماد مبادئ معينة مستقاة من ملاحظات وتجارب الناس في الماضي حول بيئة المدينة وتصميمها المعماري؟ وتطبيق هذه المبادئ على الحاضر؟ إني متأكد من أنه ما من أحد يستطيع أن يؤلف مجموعة شاملة من التوصيات خلال تصميم المدن مثل تلك الآراء التي جسدت في بناء المدن الجديدة في إنكلترا والسويد والبلدان الأخرى. وهذه المدن بتصاميمها الهندسية المتعددة ومظاهرها المنسجمة شكلاً وقياساً ولوناً وموقعاً هي في نظر المهندسين المعماريين ذات ذوق هندسي رائع وتتمثل أعلى ما وصلت إليه المحاولات العمرانية، ولكن ينقصها شيء، ليس هو بالإتقان ولا بالبناء السليم ولا الساحات ولا حركة المرور المنظمة ولا المستوى الصحي. فهل هذه المدن منظمة أكثر مما يجب، أم أن هنالك عاملاً جذرياً أو مجموعة من العوامل الجذرية تفتقر إليها لدى مقارنتها بالريف الإنكليزي مثلاً وبعض الأقسام القديمة في المدن الكبرى في العالم؟ فساحة هارفرد القديمة لها جو ساحر ولا تضاهيها في ذلك ساحة ماركنز الحديثة فيها، بالرغم من أن الأخيرة قد صممت على أحسن ما يكون التصميم.

إن هذه أمور نشك في إمكانية وجود تفسيرات سليمة لها، إذ أن أية محاولة لسير غورها تأتي من وجهة نظر شخصية ومن جانب فردي، كأن نقول مثلاً عن بيئة المدينة هي نتيجة أو وصفة أو حالة معقدة كامنة في المحيط إلى درجة أن الإنسان بكل تعقيداته يستطيع استيعاب صفاتها والتفاعل معها. وهكذا ترى أن المحيط يرتبط بالإنسان ارتباطاً مشروطاً بسبب وجود الصفات التي يتميز بها المحيط والتي تفرض

وجودها على الإنسان وتجعله يتفاعل معها. وإذا ما حاولنا على ضوء هذا التعريف أن نستعيد ما سبق أم ذكرناه، فإننا نستنتج بواسطته بعض العناصر التي تميز البيئة وتسهم إسهاماً فعلياً في تكوينها.

وفي النهاية يمكننا طرح بعض الآراء التي قد تلقي ضوءاً على هذا الموضوع، ولها إلى حد ما علاقة أو أثر على تكوين بيئة المدينة:

- أولاً: الحدود السياسية مثلاً القدس العربية والقدس المحتلة، وبرلين الشرقية وبرلين الغربية، وخطوط الحدود بين الدول، والحدود الموضعية في المدينة حيث تسود مختلف القوانين والعادات والتقاليد..

- ثانياً: ميزة الملكية أن طبيعة الأملاك في الأقسام القديمة من المدن، على اختلاف وتعدد أشكال هذه الأملاك تؤدي إلى نتيجة "غير منسجمة"، وقد تكون بذلك عنصراً من عناصر البيئة إذا ما قورنت بالأملاك الكبيرة المجمعة ضمن مخطط تنظيمي كبير

- ثالثاً: العوامل التاريخية والدينية الملازمة للمدينة وأثرها في تكوين البيئة، مثلاً الأماكن المقدسة في مكة والقدس وروما، حيث من الصعب جداً تحليل البيئة فيها نظراً لشدة تعقيدها.

- رابعاً: المنجزات الهندسية والمدنية المهمة، مثل كنيسة القديس بطرس في روما، وساحة كنيسة سانت ماركو في البندقية، وربما مبنى هيئة الأمم المتحدة في نيويورك، ومبنى جامعة مكسيكو..

• خامساً التعمير والتجديد وإعادة البناء، كما في زيوريخ ومدريد وكييف.

• سادساً: ثروة المدينة، النهضة في مدينة فلورنسا والبندقية، ثم التطور الصاروخي في الكويت وكراكاس.

وفي جميع هذه الحالات أوجدت الثروة غير العادية عوامل لتكوين البيئة لها قيم جمالية متعددة

إن البيئة حقيقة تستعصي على التحليل الدقيق. إنها شيء ملموس، وأماكن من الصعب أن تلمسها اليد. إنها دون شك صفة أو ميزة في المدينة، ومع ذلك فهي شيء محسوس يمكن ملاحظته والإحساس به بصرياً وحسياً ونفسياً وعاطفياً وروحياً وسلوكياً. وكل ناحية من هذه العوامل التي تساعد على فهم البيئة تستحق دراسة دقيقة ومتخصصة ليمكن على ضوئها وضع مخططات أفضل لتنظيم المدن في المستقبل، لأنه إذا ما خططت مدن المستقبل بطريقة آلية ودون وعي تام لجميع العوامل التي تخلق البيئة الجميلة، فإن كثيراً من المزايا المستحبة والمظاهر الجذابة ستفقدها دون شك بيئة تلك المدن في صورتها العامة.

حالة المدن العربية
التنظيم الشامل بالنظر للمعوقات

إن تنظيم المدن، كما يفهم اليوم، حقل واسع يشمل العلم والفن معاً، كما يشكل العلوم الاجتماعية كذلك؛ فهو لذلك حقل واسع التشعبات يتطلب كل فرع منه تخصصاً فنياً. وفي الأساس يهدف تنظيم المدن إلى خلق بيئة جميلة تلائم سكان المدينة؛ فعلى ذلك يحتاج تنفيذه إلى معاونة العالم والباحث الاجتماعي والفنان على حد سواء.

اهتمام الإنسان بتخطيط المدن قديم، وتاريخ المدن طويل، إذ يعود إلى حوالي خمسة آلاف سنة تقريباً؛ فمنذ بداية الحضارة، رافقت المدينة تطور المجتمع البشري؛ ففي مصر واليونان والهند والصين وحضارات أمريكا اللاتينية القديمة، لا تزال آثار المدن شاهدة على اهتمام الإنسان بتخطيط المدن وبنائها، وبتعبير آخر، بإقامة الشوارع التي تقسم المدينة إلى عدة مناطق مع ترك منطقة وسطية خالية من الأبنية تكون نواة المدينة.

تخطيط الشوارع وحده لا يكفي، وفي عدة دول اليوم، لم يتعد تخطيط المدن طريقة بسط الشوارع الأولية هذه. ولقد بلغ هذا النوع من التنظيم قمته في تخطيط مدينتي باريس وواشنطن، كما يظهر بوضوح في كامبرا عاصمة استراليا ونيودلهي عاصمة الهند. وبمرور السنين، وبنمو المشاكل الصناعية والاجتماعية في المدن، اتضح – شيئاً فشيئاً – قصور بسط المدن إلى شوارع عن خلق الجمال أو توليد التلاؤم والراحة في المدينة، كما اتضح أن المزاج الكيفي بين استعمالات الأرض المختلفة من سكنية وصناعية وتجارية، قد أدى إلى متاعب وأضرار

برئات سكان المدينة، وفضلاً عن ذلك فإن استعمالات الأرض المتباينة ولدت أحجاماً متباينة في حركة المرور نيط أمر معالجتها بنظام موحد من الشوارع.

مشاكل اجتماعية سببها نمو المدن دون سابق تنظيم في حاجة إلى إعادة تخطيطها على أحدث الأساليب

إن الضغط الصناعي في المائة سنة الأخيرة، والنظم غير المنطقية للسير، ونمو المدن بغير نظام، سبَّب مشاكل اجتماعية كبيرة كانت تتطلب الحل والعلاج؛ فقيام أحياء العشش القذرة المزدحمة بالسكان، والأحوال الصحية المتأخرة، وعدم تمكن البلديات من الضغط الناتج عن نمو المدن.. كل ذلك سبب استيقاظ الضمير الاجتماعي في دول عدة؛ فلم يعد كافياً القيام بإنشاء الأبنية الفخمة والساحات الواسعة أو شق الطرق الفسيحة دون الاهتمام بمشاكل الحياة اليومية التي يواجهها سكان المدينة. وعندما ازدادت الحالة في المدن سوءًا، كان لا بد من اتخاذ إجراءات رسمية لتضع موضع التنفيذ اقتراحات المصلحين الاجتماعيين وعلماء الاجتماع والمختصين في فن العمارة معاً، ونتيجة لذلك اعتبر تخطيط المدن عملية فنية متعددة الجوانب في معظم الدول المتقدمة صناعياً، وصار التخطيط واجباً من واجبات الحكومة يستوجب اهتمامًا يعادل اهتمام الحكومة بأمور الدفاع والمال وشق الطرق وما أشبه؛ ففي إنجلترا مثلاً تكون وزارة التنظيم البلدي والقروي إحدى وزارات الحكومة المركزية وتقع على كاهلها مهمة إعادة تخطيط المدن

البريطانية وحماية الطريق من مضار التصنيع والمتاجرة بالأراضي بقصد الاستغلال اللامحدود.

معظم البلاد العربية ينقصها الفنيون والمال

وليس من الضروري للدول العربية أن تنتظر حتى تسوء أحوال مدنها إلى الدرجة التي بلغتها معظم المدن الغربية قبل اعتمادها التخطيط البلدي كوسيلة من وسائل الحكومة المركزية؛ فإن معظم الدول الآسيوية الإفريقية – بما فيها الدول العربية – لا تزال في المرحلة الأولية للتصنيع، وتستطيع الآن أن تستفيد من تجارب الغرب في هذا المضمار، وذلك بأن تجعل من تخطيط المدينة والريف وسيلة تنير سبل إنمائها المنظم.

ومع الأسف؛ فالوضع ليس على تلك الحال المرتجاة في معظم الدول العربية؛ ففي لبنان وزارة جديدة هي وزارة البلديات والأرياف وهي – وإن أخذت تتطور وتتوسع أخيراً – إلا أنه ينقصها الموظفون الاختصاصيون والمال اللازم لتحقيق الدراسات الكثيرة للقيام بتطوير المدن والأرياف. والوضع نفسه يسود البلديات في بيروت وعمان والكويت وغيرها من بلديات المدن الكبيرة؛ فالموظفون الفنيون قلائل ولا يستطيعون القيام بالدراسات الواسعة التي تتطلبها مدن تزداد أمور إدارتها تشابكاً وتشبعاً يوماً بعد يوم. وفضلاً عن ذلك فإن موازنة البلدية لا تكفي بالنسبة لنوع العمل المفروض أن تقوم به لتجعل من المدينة

العربية مدينة ذات رونق، ملائمة ومريحة لسكانها. أما في الجمهورية العربية المتحدة بإقليمها فإن وزارة الشئون البلدية والقروية قد أخذت تصبح أداة تخطيط مثمرة في يد الحكومة.

أمثال من سوء التخطيط في المدن العربية

وإذا ما نظر المرء حوله في بيروت أو في عمان أو في أي دولة عربية أخرى فإنه يستخلص بسهولة أن هناك أموراً كثيرة يمكن تحقيقها أو تطويرها بشكل أكثر ملاءمة وأشد بهاءً؛ فحالة السير مهزلة يعرفها الغريب كما يعرفها المواطن، والشوارع الضيقة يضيق بأمرها المواطنون خصوصاً عندما يقارنونها بالبنايات السكنية الضخمة المقامة على جانبيها، والنقص الفاضح في المنتزهات والحدائق والملاعب العامة حقيقة تشعر بها وتأسف لها كل عائلة، والمزج الكيفي لاستعمال الأرض السكني مع استعمالها التجاري وما يتبعه من انعدام للنظام في الشوارع وضجة تسود ربوع الأحياء السكنية، أمر يلمسه ويأسف له كل مواطن.

خذ مدينة بيروت مثلاً، فإن موقعها يعتبر من أجمل المواقع الطبيعية في العالم، وبالإمكان أن تغدو بيروت من أجمل مدن العالم، فالموقع يلعب دوراً مهماً في المظهر الطبيعي للمدينة وفي مستقبلها. إن بيروت يمكنها، بل يجب أن تكون درة بين المدن تجمع خير ما في الحضارة الشرقية والحضارة الغربية، ولكن الواقع هو خلاف ذلك؛ فنظرة واحدة إلى "الكورنيش" توضح للمرء كيف تحجب البنايات الفخمة الواحدة منها

الأخرى، ويتمنى المرء أن يرى فسحة خضراء بينها فلا يجد. وبعد ذلك بمسافة قليلة من هذه البنايات توجد بقعة تعد من أجمل شواطئ البحر الأبيض المتوسط الشرقية، شوهت منظرها البنايات المتداعية المؤذية للنظر.. ويعجب المرء لهذه الكارثة ويتساءل عن أسبابها. والجواب بسيط فهناك نقص في التخطيط العريض الشامل الذي يقدم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة أو على الأقل يحاول إقامة التزاوج والتوافق بينهما. وما ينطبق على مدينة بيروت ينطبق مع الأسف على المصايف اللبنانية الغنَّاء التي توسعت ونمت دونما تنظيم أو تخطيط، كما ينطبق كذلك لحد ما على دمشق والكويت وعمان والرياض.

الإنقاذ يكون بالتخطيط العلمي الوافي للمدينة والريف معاً

كيف نستطيع إنقاذ الحالة قبل فوات الأوان؟.. كيف يمكننا أن نجعل من بيروت وعمان والكويت مدناً جميلة ملائمة لأن تكون عواصم لدول عربية تنمو وتتطور بسرعة؟.. وكيف يمكننا حفظ الخصائص والميزات الطبيعية لسوريا ولبنان والأردن في الجبال وعلى الساحل وحول الممرات المائية؟.. وكيف يمكننا منع المزج الكيفي لاستعمالات الأرض المتباينة ومنع استعمال الأرض غير المناسبة؟.. وكيف يمكننا منع الهجرة من الريف إلى المدينة على حساب الريف والمدينة على حد سواء؟.. وكيف يمكننا تحقيق التوزيع الجغرافي للسكان بحيث نمكن المواطنين

من الحصول على دخل محترم من الصناعة والزراعة والاصطياف وغيرها من الجهود الإنتاجية؟

إن الجواب على هذه الأسئلة وكثير غيرها يكمن في التخطيط العلمي الوافي للمدينة والريف؛ فمن الواجب إعداد خطة حكومية رئيسية لتطوير كل من المدينة والريف، هذه الحقيقة لا بد أن يعيها أفراد الشعب العربي، والذين بيدهم مقاليد الأمور في الحكومات.

لا بد قبل التخطيط من جمع معلمات وحقائق عن البلد المقصود

من الطبيعي أن تتطلب عملية وضع سياسة لتطوير أي قطر عربي وجود حقائق ومعلومات حول هذا البلد؛ فيجب إذن تجميع المعلومات عن كل ناحية من نواع ذلك القطر: تاريخه، وشعبه، وخصائصه، وميزاته، واقتصاده، واتجاهاته، وما يملك وما لا يملك، ولا بد من التأكيد على الحاجة لتجميع المعلومات والحقائق. فإن ذلك يشكل اليوم علمًا يشغل في جميع البلاد المتقدمة هيئات حكومية كبيرة للقيام به، هي دوائر أو مكاتب الإحصاء.

وهذه المعلومات إن لم تدرس وتحلل بذكاء فإنها قد تشكل عبثاً يعوق عملية التطوير أكثر من كونها تسهيلاً يساعد على حلها. وفي هذا المجال، تظهر الحاجة الملحة للموظفين المتخصصين؛ فبين يدي

الموظف المتخصص ذي الخبرة تتحول المعلومات الجافة إلى معان حية تبنى على أساسها السياسات والقرارات كبداية للتنفيذ.

لابد من أفضليات

من المؤكد أنه لا يمكن تحويل مدينة ما إلى جنة بسهولة. المهم أن تتحول جميع التحسينات في المدينة إلى كل شامل ذي معنى. وإذا ما أخرجت الخطة الرئيسية، فلا بد من وضع برنامج أفضليات، أي وضع الأمور المهمة في المرتبة الأولى؛ فالتحسينات الضرورية كالطرق، وخطوط المنافع العامة، وما أشبه، لا يمكن تأجيلها في معظم الأحيان، إذ لا بد من تنفيذها كلما نشأت الحاجة إليها، إن لم يكن قبل ذلك، غير أن التسهيلات كالمنتزهات والحدائق العامة، مواقع المدارس، وإعادة إنشاء مناطق العشش السكنية وجمع دوائر الحكومة في مراكز مجمعة... الخ لا يمكن القيام بتنفيذها بسرعة، ولكن إذا ما عنيت هذه الأمور على الخطة الرئيسية، فمن الممكن البدء بأعمال أولية لتحقيقها كهيئة تصاميمها، وإعداد الإجراءات والاستملاكات اللازمة لها، والتخطيط المالي لدفع أثمانها وهكذا.

ضرورة تقسيم المناطق إلى تجارية وصناعية وسكنية الخ..

إن المساحات الجديدة التي تكبر وتتوسع باستمرار في المدينة العربية، يجب أن تدرس أيضاً من أجل تقسيم المناطق إلى مناطق تجارية وأخرى صناعية وثالثة سكنية، ومن أجل تنظيم حركة المرور وإنشاء شبكة اتصال مع قلب المدينة، وإقامة التسهيلات الضرورية لمراكز الشراء والمدارس والمستشفيات.. الخ. إن هذه الخطة ستخفف الضغط على

المنطقة المركزية وتساعد على تخفيف حجم السير المتزايد الذي لا بد وينصب على قلب المدينة.

لا بد من قيام الجامعات، بدراسات في التخطيط

ومع وجود شعور بين بعض القطاعات الشعبية والمسؤولين في الحكومات العربية بأهمية تخطيط المدينة والريف والعمل على تنفيذه، إلا أن نتيجة ذلك ليست على درجة من القوة لتوحي للمرء بالاطمئنان؛ فعدم إدراك المؤسسات الثقافية في البلاد العربية للنتائج الاجتماعية المترتبة على عملية التنظيم الشامل ظاهرة غير مشجعة ذلك أن أيا من جامعات لبنان والجمهورية العربية المتحدة والعراق لا تعطي دروساً في التخطيط البلدي والقروي الوافي مع كونه حقلاً أساسياً للثقافة. وغالباً ما يُستدعى المهندس ليقوم بدور المنظم، ويكون ذلك مع الأسف كاستدعاء طبيب الأسنان للقيام بجراحة للدماغ، ولا يوجد في العالم العربي سوى أربعة أو خمسة منظمين أكفاء.

وهذا النقص الهائل في المنظمين يعكس انعدام الوعي للأهمية الاجتماعية للتنظيم، ويفسر لحد بعيد، الحالة المؤسفة التي تتردى فيها معظم المدن العربية.

لا بد للسكان من أماكن تجمعهم لقضاء أوقات الفراغ

هناك مشاريع عديدة يمكن التفكير بإنشائها من اجل المدينة العربية، كإقامة مجمعات للدوائر الحكومية ومراكز للرياضة ومراكز بلدية؛ فهذه الجمعيات والمراكز بتجميع عملياتها في مبنى واحد، توفر للمواطن مقداراً كبيراً من النشاط الذي كان سيبذله في الجري من مكان لآخر كما يحدث مثلاً عندما تتعدد معاملات المواطن في الدوائر الحكومية المختلفة. ولعل الحاجة لإنشاء بيئة بسيطة وآمنة وهادئة وذات رونق لساكن المدينة، أهم من كل هذه المشاريع؛ فمن الضروري إعداد بيئة ملائمة لحاجات الكبير والصغير والغني والفقير على حد سواء. ومن الضروري كذلك إعداد أمكنة يستطيع الجمهور فيها الاكتفاء بسهولة ويسر، للعب والجلوس والاسترخاء والاستراحة من ضغط كسب القوت في المجتمع الحديث القاسي. وكما هي الحال الآن، لا يجد المواطن العادي لقضاء أوقات فراغه سوى الذهاب إلى السينما أو الملاهي الليلية، وهي أماكن لا تساعد على تنبيه روح المواطنية الصحيحة. والناس على ما يبدو في مثل هذا الوضع، لا يستطيعون سوى لمح بعضهم البعض أو التكلم مع بعضهم البعض في السيارات الصغيرة، أو الترام، أو الباص المزدحم دون أن يشعروا بالعامل الإنساني الذي يجمعهم مع إخوانهم المواطنين الآخرين. وأنه ليس من التقدم في شيء عندما يضيع عامل الصداقة الإنساني في الجمهور.

إنها لمأساة.. أُنظر إلى الأطفال في المدن العربية؛ إنك تراهم يلعبون في الشوارع الخطرة، فثمة جيل جديد يترعرع بسرعة دون أن يعرف ما هي الزهرة أو الشجرة وما هو الهواء الطلق. يرى أفراده سيارات "الكاديلاك" وزوايا الشرفات البهية الألوان ويسمعون الضجيج ويتنفسون ثاني أكسيد الكربون. ان العامل الإنساني يفقد بسرعة، هكذا يبدأ العمار! في سبيل السكن يستقر الإنسان في بقعة ما ويبني! يبني حب الضرورة والحاجة! يبني بدون انتظام وبدون خطة! يبني كي يسكن! ومن ثم تبدأ مشاكل القرية أو المدينة وتزداد المشاكل الحضرية والتنظيمية؛ فالإنسان في جهاد مستمر مع الطبيعة يبني المدن ويطورها ويجملها وينظمها؛ فالتاريخ حافل بمجهود الإنسان وبناء المدن. والبيئة الإنسانية هي السبب الأساسي في ذلك. إن الازدحام والشوارع الضيقة والضجة، وكلها نتائج مباشرة للمضاربة الجنونية على أسعار الأراضي، تشكل الأسباب المباشرة لشوارع العشش القذرة. وإذا لم نستيقظ فوراً – شعوباً وحكومات – فإن حقائق التاريخ ستصدمنا بسرعة لنجد أنفسنا قد أقمنا شوارع العشش القذرة بدلاً من تشييد جنة.

وإذا افترضنا أن الوعي الشعبي والحكومي قد تم بحيث أن التنظيم – بمعناه الحديث الإنساني الشامل – قد أعطى دوره الكامل، فما هو المطلوب عدا ذلك؟ أمران:

- أولاً: سن قوانين سليمة وشديدة وتطبيق هذه القوانين دون محاباة.

● ثانياً: نظام ضرائب سليم لتمويل بناء المدينة العربية الحديثة .

في العالم مدن قليلة تعطي العقارات فيها مدخولاً كبيراً لمالكيها وتدفع قليلاً لخزانة الدولة كما هي الحال في بعض المدن العربية، وهذا هو السبب الأساسي للنقص الحالي الدائم الذي تقاسي منه بعض المدن العربية. وإذا أردنا أن نوفر بيئة مريحة ذات رونق، فلا بد لساكن المدينة أن يدفع للحصول عليها وفقاً لمقدرته، ومن غير الممكن إعادة تنظيم المدينة دون تأمين دخل ثابت من قاعدة للضرائب مخصصة لتحسين المدينة. ومن أجل ذلك فمن الضروري إعادة تقويم العقارات في المدن العربية المشار إليها، وتعديل ما يفرض عليها من ضرائب تبعاً لذلك؛ فنظام الضرائب وطرق إدارته يعتبران من أهم العوامل التي تحتاج إلى إعادة درس وتطوير وتطبيق بغية الإصلاح والتطوير.

إن ما قيل عن المدينة العربية ينطبق بنفس القوة على الريف العربي بمدنه وقراه فكل منطقة في أي بلد عربي يجب أن تدرس على حدة. والأرض يجب أن تقسم إلى فئات كالأرض المخصصة للزراعة، والأرض المخصصة للغابات، والأرض المخصصة للصناعة، والأرض السكنية، والأرض المخصصة للتسلية والنزهة؛ فهذا سيحمي الريف من الاستعمالات الكيفية غير الملائمة.

الكويت مدينة عربية
يشتبك فيها القديم والجديد

للمدن العربية، شأن معظم المدن في العالم، أمجادها وضعفاتها، ولها محامدها ومعايبها. وهي كائنات "تولد" وتنمو وتموت، وتبعث حية إذا اقتضت ذلك الضرورة ومتطلبات الزمان والمكان وزخم الحياة. وفي المظاهر المجيدة للمدن العربية، كالقدس والقاهرة وبغداد ودمشق وتونس وغيرها، أمجاد لنا، مثلما في المظاهر المحزنة للمدن المذكورة نفسها ما يبعث فينا الحزن، والقديم والجديد يتشابكان في هذه المدن، ويتشابك فيها كذلك الرونق والبشاعة. ولا ينفك الزمان والمكان يلطمان العين والعقل معاً، بينما تقوم حواس اللمس بتسجيل سائر الصفات المميزة للقديم والجديد والرديء. وتمتلئ مدننا العربية بالقصور وبالأكواخ، وقد خط فيها تاريخ العربي وفكره ونفسيته وشخصيته وحقيقته العظيمة – حقيقة العالم العربي، الذي لا يزال ينظر البعض غليه كمجرد حلم، مع أن القاسم المشترك بين مدته وتواريخها وهندستها المعمارية قوة صاهرة لما فيها من تشابه وتماثل وتوحد.

والمدن العربية شبيهة بعينات النبات والحيوان. فإنه يمكن تصنيفها بسهولة، لكن ذلك لن يؤدي إلى أية غاية مفيدة. ففي هذه المدن نواح سامية ونواح وضعيفة، والسامي منها يكافح دوما كفاحاً ضارياً ضد الوضيع. والضغوط السكانية، وتأثير مداخيل النفط، ويقظة الجماهير المغلوبة على أمرها، وإستراتيجية الحرب الباردة، وتوق العربي للراحة والبذخ والرفاهية، ونزعته نحو التهرب من صعوبات الحياة وحقائقها – هذه كلها مكتوبة بوضوح على وجه المدن العربية ومحفورة بعمق في كيانها وتركيبها وسياسة تخطيطها.

والكويت أكثر المدن العربية إثارة للدهشة ، إن هذه المدينة العربية غير العادية مجهر مكبر ومنظار مقرب للعربي في آن واحد، لعقله ونفسه وروحه ومثله وآماله. أنها أفضل لوحة مكبرة ومصغرة للعربي، إذ هي تعكس تراثه وتاريخه، مثلما تعكس وضعه الحالي، والنواحي القوية وغير القوية كثيراً فيه، وسعيه (المتئد والمنظم أحياناً والمحموم وغير المنظم أحياناً) إلى احتلال مكان لائق تحت الشمس. فهنا، في الكويت، مزيج مختلط من العرب، جاؤوا من سوريا وفلسطين والأردن ومن لبنات ومصر والسعودية ومن العراق واليمن ومن سائر أنحاء منطقة الخليج العربي، والتحموا مع أبناء البلد فيه بإعداد متساوية تقريباً.

ولا يقلل من أهمية هذا المزيج من العرب وجود مزيج آخر من الإيرانيين والباكستانيين والهنود ومن الشعوب الأخرى، حتى البعيد منها كاليابانيين والأمريكيين ، وهؤلاء الوافدون الجدد يحضرون معهم شيئاً من مدنهم، يأتي كل منهم بصفة مميزة، تضيف إلى لون الكويت، وجوهاً لوناً وجواً، وتغير فيها من هذه الناحية أو تلك.

وقد انبثقت مدينة الكويت فجأة، على عكس المدن العربية التقليدية وخاصة العواصم والمدن الرئيسية منها، واتسعت، وامتدت لتصبح مدينة، ثم عاصمة، ثم دولة، – كل هذا في فترة لم تبلغ عقداً ونصف العقد من السنين. وكثير من معالم الكويت ومن مميزاتها غزيرة فريدة، بسبب بحبوحة العيش العظيمة الناتجة عن اكتشاف النفط

وتسويقه بكميات هائلة، بحيث يحتاج البحث في وضعها الفذ المتشعب إلى مجلدات عديدة.

والواقع أن كلمة "فذ" ليست اللفظ الأنسب لوصف الوضع في الكويت: وربما أصبحت كلمة "كويت، يوماً ما، مرادفاً لكلمة "فذ" ، فالكويت فذة فريدة في العمران وفي البحبوحة، وفي الطموح والجرأة والتطور، وفي الحكم وفي البنيان الاجتماعي، وربما كانت الكويت فذة فريدة أيضاً في كونها في الواقع مدينة طبيعية عادية تتمتع ببحبوحة غير طبيعة وغير عادية.

الكويت، كمجتمع، مثال للمدينة العربية. أما الكويت كمدينة فقد تكون كل شيء إلا أن تكون مثالاً للمدينة العربية. إن تكوين الكويت المدني وتركيبها العمراني، وجفافها وفقدان ماء الشرب الطبيعي فيها، وبدايتها المتواضعة التي تفتقد إلى الامتداد التاريخي المتواصل وإلى آثار الماضي، وصحوت البيوت ونوافيرها، و"ديكوراتها" الداخلية العربية السائرة كلها إلى الزوال، وما فيها من سيارات ضخمة عديدة تلقاها أنى تلتفت، وكلها أنيقة وجديدة، ذلك كله يسهم معاً في جعل الكويت صورة مغبشة لاتجاه عمراني عالمي يبحث عن أسلوب ومصطلح، عن شعر ونثر مديني، أو حتى عن علامات وقف وترقيم، عن هدف وحلم. الكويت مدينة ومع هذا فهي ليست بالمدينة، هي مدينة ودولة، مدينة – دولة من عهد خاص غريب من عهود النهضة. إنها مدينة صعبة وخشنة وخجولة، تثير كافة أنواع ردود الفعل الجمالي، ومع هذا فهي مدينة بريئة

تستدر الإعجاب والعطف وتتميز بمميزات وعلامات فارقة من نواح كثيرة. وبدلاً من أن ترتبط بمراسيها التاريخية المتواضعة وبتراثها البسيط الجميل، فإنها ترتبط بالمستقبل" بمستقبل البحبوحة والرخاء والترف، الذي تتوق له سائر المجتمعات – إلا الكويت، التي بدأت تمل منه بسرعة.

ما يدهش المرء أكثر من أي شيء آخر في الكويت، جدتها جدة غريبة. ولا يمكن القول أن الكويت مثال للمدينة العربية الجديدة، لأن معظم معالم المدينة العربية (باستثناء المساجد) تصعب رؤيتها واختبارها في الكويت. وفي الكويت شبكة من الطرق العريضة (هي في الواقع أشبه "بطرق سباق") لم تجرؤ أية مدينة عربية بعد على شق مثلها خارج المدن – بله داخلها. وما على المرء إلا أن يخيل ماذا ستكون عليه مثل هذه الشبكة من طرق السباق، لو أنها تشق الأحياء القديمة من القاهرة أو الدس أو دمشق وتربطها مع الأحياء الجديدة قبل ربطها مصطنعاً غير عضوي. ومع هذا فقد كان الأمر في الكويت مختلفاً ، وبدا وكأنه هو الأمر الطبيعي، وذلك لأن سور المدينة كان من الدقشوم ولم يكن من الحجر، وكانت المباني من الدقشوم لا من الحجارة، وكان من تخطيط المدينة مسطحاً غير متموج، وكانت المبالغ المدفوعة كتعويضات لأصحاب الأملاك والأماكن المتأثرة بالعمل خيالية باهظة. وهكذا تمت عملية باهظة.. وهكذا تمت عملية تهديم المدينة القديمة وإعادة البناء، هذه العملية المعجزة الواسعة النطاق، بسرعة خاطفة، وتمت بالتالي عملية بناء مدينة هائلة جديدة كل الجدة تقريباً.

فوق رقعة صحراوية فريدة ووعرة ، يمتد كيان وتركيب مديني، إلى جانب معمار للمدن والخلاء بعيد جداً عن الصنف الفريد الذي تحتاج له الرقعة الصحراوية، إن لم يكن غريباً عنها. وبالرغم من هذه "المخالفة" للقواعد المدينية والمعمارية القياسية، لا يزال كيان المدينة ومبانيها وحدائقها يسير بسرعة محمومة نحو التطور، ويبدو أنه ما من أحد يلاحظ ذلك بالرغم من جميع الاعتراضات التي قدمت ضد هذا الأسلوب في العمران في السنوات الماضية. والكويت تختلف في هذا المجال عن معظم المدن العربية. فقد قامت هنا ملحمة كبرى لا تزال قائمة وربما ستظل قائمة لوقت طويل – ملحمة من العمليات الضخمة، تجمع بين الطرق والمباني ومجتمع متجانس يحدوه سباق عنيف مع الزمن، للنجاح وتكديس الأرباح وكسب الاعتبارات وأحداث أثر على قشرة هذه الكرة الأرضية.

لاشك أن الكويت تختلف عن سائر المدن العربية. إنها مدينة جديدة. حتى البلدة القديمة، على نقيض سائر البلدان العربية على مر التاريخ، هي أيضاً مدينة جديدة. أما المدينة الجديدة فهي جديدة بشكل غريب ومثير.. هذه الجدة، وما يكمن وراءها من أسباب، هي التي تجعل من الكويت مدينة فريدة فذة، إن لم تكن بدعة، ليس فقط بين المدن العربية وإنما أيضاً بين المدن في كل زمان ومكان.

وبينما يترك التاريخ وسير التاريخ أثره بشكل ثابت على ملامح بعض المدن العربية، مثل بغداد ودمشق والقدس، لا نجد على المحيا

العمراني للكويت تجاعيد التاريخ ولا ترى إمارات الجمال فيه. لكننا نجد على وجهها قطعة ضخمة جداً من التضاريس العالمية المنبثقة عن رمال البادية العربية المحرقة، وهي تروي قصة مدينة تكافح الطبيعة بصلابة غريبة مكرسة، تؤكد على طبيعة العربي المندفعة بعزم فريد على صنع قصبة عربية حديثة على وجه رمال الصحراء العريقة، سراب شيء حقيقي، مهما كان الثمن ومهما كانت التضحيات ومهما بلغ الطيش.

تتمسك المدينة القديمة، التي تقاسي عن مد وجزر العمران الجديد الذي لا يرحم، بموقع الكويت القديم كحامية شهمة تزود عن الحصن في وجه عدو متفوق قاس. والمدينة القديمة، التي تقوم هناك عارية خجولة يمزق جسدها البولدوزر وعمليات التثمين السحرية، إنما هي بحد ذاتها ملحمة بطولة، قصة هوميروسية، وربما فلتة من فلتات التاريخ الشاذة ، طيف جاءت هذه الكويت القديمة إلى الوجود أساساً؟ ولماذا جاءت؟ وكيف صمدت ونجحت؟ ولماذا تسكن سكانها بهذا الموقع من الأرض بهذه الشدة؟ ولماذا تعرضت لضربات البولدوزر المؤلمة مدة الملايين من ساعات عمله؟

بسبب النفط، طبعاً. فكمن ينتظر بمزيج عجيب من الصبر وعدم الصبر، تحمل الكويتيون الأمر حينما كانت الحالة مستحيلة تقريباً مدة طويلة إلى أن يتم اكتشاف النفط يوما ما. وعندما اكتشف أنتج بكميات هائلة جداً: هائلة لدرجة أنها جعلت الكويت تقفز من حقبة عمرانية

معينة ومجتمع معين وطراز هندسي مميز، إلى حقبة ومجتمع وطراز أخرى، لها أشكال ومعالم على طرف نقيض من معالم تلك وأشكالها.

يرى الزائر عدد من المباني العتيقة منثوراً في الكويت القديمة بين كتل المباني الجديدة، بينما الوضع هو عكس ذلك في معظم المدن العربية، حيث تنتشر المباني الحديثة بين القديمة. هذا هو الانطباع الذي يكونه الزائر إذا حملته سياحته على التجوال ماشياً في دروب الكويت القديمة وزواريبها. فسيرى عند كل منعطف بقايا ماض قديم، ماض الأمس فقط، يجاور الجديد جيرة غريبة، وسيرى الجديد أيضاً يجاور القديم، يجاور الأمس، جيرة أشد غرابة. وقد يتأمل المغامر الحساس، الذي لا يهتم بالتبدل بحد ذاته بل يهتم بصفة التبدل ونوعيته في المناظر الحميمة في القديم تأملاً عاطفياً، وقد يغمره الجديد بالإعجاب، لما فيه من مناظر الانشراح والسعة.

ليس في مدينة الكويت، لا القديمة ولا الجديدة، ككيان لم يستقر ويتبلور بعد، توازن ولا انسجام ولا مقاييس ولا تناسب في الطريقة التي تفعل فيها المباني والشوارع والدورات والحدائق وتتفاعل وتنعكس من أجل إيجاد شكل عمراني وتجمع عمراني.فبعض المعالم العمرانية الجديدة السمجة تتضخم بدون تناسب لتصبح هي الغالبة، بينما ترقي معالم أخرى كالمساجد والبنايات القديمة، بفعل التصميم أو الإهمال، وتضعف.وتتواجد المعالم الغالبة والمغلوبة في نظام عجيب من الانتظام ومن الفوضى (يتوقف ذلك على طريقة نظرة الإنسان إليها) حتى أضحت

المدينة خليطاً عجيباً من أشكال شتى. وتسيطر السيارات والطرقات ذات الخطين والدورات المتزايدة، على رمال الكويت سيطرة مطلقة. ويكاد يصرف المرء وقته كله في السيارات، أو على جانب السيارات، أو بين السيارات، لقضاء كل حاجة مهما كبرت أو صغرت عليه قضاؤها. فالتنقل بالسيارات على طرق دولية ممتازة متقوسة وفي دوائر يميز هذه القصبة العربية الفتية، المتشامخة، الديناميكية، الخجولة، المحيرة.

في الفدان الواحد في الكويت من القصور والفيلات والمدارس، ومن مراكز الإطفائية والعيادات ومن الجوامع ومراكز الشرطة والمراكز الاجتماعية ومن أعمدة الكهرباء وانتينات التليفزيون ومن السيارات والشاحنات والدكاكين ومن كل أنواع الدارات الحديثة وسائر المباني (وكلها تتعايش هندسياً في فوضى منظمة) أكثر مما يوجد منها في أية مدينة عربية أخرى، إن لم نقل في أية مدينة أخرى في العالم بل في التاريخ. وتوجد هنا أيضاً أضخم محطة تقطير للماء في العالم، ومصعد ضخم للحبوب، وأكبر مذخر للأدوية في العالم، وسجن حديث لعله أحدث سجون العالم، ومحطتا كهرباء ضخمتان، بالإضافة إلى عدد هائل من الأشجار في منطقة صحراوية لم تكن فيها قبل سنوات شجرة واحدة. ويمكنك أن تشاهد ألوان قوس قزح على مباني الكويت أكثر مما تشاهدها على مباني أي مكان آخر في البلدان العربية، وربما في العالم كله.

والكويت هي المدينة الوحيدة في العالم العربي، بل وفي العالم كله في الواقع، التي لا تجبي ضرائب بلدية. فالبلدية تحصل جزءاً كبيراً من ميزانية الدولة للأنفاق على نشاطاتها. وتبدو البلدية وكأنها مؤسسة مصرفية ضخمة للأراضي التي نزعت ملكيتها من أجل إجراء كافة أنواع التخطيط فيها. وتخصص مبالغ باهظة كل سنة لهذه "الهواية" التي تمارسها البلدية بكثير من الاهتمام والجدية. والواقع أنه ما من بلدية في العالم متنعمة أكثر من بلدية الكويت. وهي ممتنعة لدرجة أنها تكاد تنعم الجميع. وقد نتج عن ذلك أن كثيراً من الكويتيين أصبحوا أثرياء بشكل هائل، وقد تسللت إلى جيوبهم حصص ضخمة من عائدات النفط بهذه الطريقة. وصار تعبير "دولة الرفاه" صفة للكويت. فتعمل وزارات ضخمة واسعة الأجهزة لتأمين التعليم والصحة والخدمات الاجتماعية لحوالي نصل المليون من سكان هذه المدينة الصحراوية الغريبة، – وإن كانت هذه الوزارات تقصر أحياناً عن المستوى والإنتاج المطلوب أو المتوقع. ومع أن المؤسسات الدولية والخبراء كثيراً ما يشيرون إلى تدني القدرة على تنفيذ العمليات، إذا ما قورنت بالمصاريف وبالنتاج المطلوب في وقت معين، تستمر الدولة في الإنفاق وفي استخدام المزيد من الناس وفي مضاعفة مجهودها من أجل تحقيق سياسة "دولة الرفاه"، وهذه نعمة، على العرب وغير العرب على السواء. فمشاهدة التعاسة الإنسانية التي تشاهدها في بعض المدن العربية الأخرى لا توجد هنا على المستوى نفسه من الوضوح والتأثير والشدة. وفي كل مكان من الكويت تمكن مشاهدة أول "دولة رفاه" تعمل في العالم العربي على نطاق واسع.

والحقيقة أن نشاطات القطاع العام تطغى في الكويت على نشاطات القطاع الخاص، مهما حاول هذا القطاع جاهداً فرض ذاته. وهذا يختلف عما يشاهده الإنسان في مدن عربية أخرى، كعمان أو بيروت أو جدة. غن مدارس الكويت ومستشفياتها، ومراكز الإطفائية والشرطة، والعدد الكبير من مساكن ذوي المداخل المحدودة، كلها صقيلة ووقورة، وكلها نتائج التصاميم الهندسية المصقولة المتكررة، وليست نتاج أفراد من المهندسين الذين ينحتون المدينة العربية بغرائبهم الهندسية. ويختلف الوضع الطبيعي للمدينة في الكويت عنه في المدن الأخرى، من حيث بنيانه ومميزاته وقوالبه. فقد انبثق هذا الوضع عن عدد من العوامل: عن البحبوحة الفاحشة، والسرعة، وغياب العامل الاقتصادي عن التصميم والبناء، والهوس فيما يتعلق بالعائدات من الاستثمار، ومقدرة "المحترفين" من المهندسين والفنيين والمصممين، وغير ذلك. وباختصار: إن الكويت عربية جداً في تصرفاتها الأساسي فيما يختص بثروتها الخيالية، وقد تخلت عن المصلح العربي، التقليدي منه والمعاصر، في العمران وفي الهندسة المعمارية تخلياً كاملاً، بحيث أنها أصبحت مدينة عربية لكنما من صنف قائم بنفسه.

كانت الكويت إلى وقت قريب تشارك أخواتها العربيات في نمط بسيط وعضوي من هندسة المدن والمعمار، ذات الصفات القوية المميزة وذات المبررات التي تنبع عن تجاور الصحراء والبحر عن الطقس القاسي وفقدان مواد البناء كلها تقريباً باستثناء الطين والطوب المجفف. وفجأة تحولت الكويت إلى مجتمع فائق البحبوحة، فيه أعلى نسبة من دخل

الفرد في العالم ، فتحولت المدينة تحولات جذرية في العشرين سنة الأخيرة من كل ناحية وبكل معنى.

تأثر العمران والفن المعماري بهذه التغيرات كلها أكثر مما تأثر بها أي مظهر آخر من مظاهر المدينة. ونمت الكويت الجديدة بسرعة واتخذت وضعاً لا يرتبط أدنى ارتباط مع عناصر البيئة والتراث الاجتماعي والجغرافي والهندسي للموقع ذاته.

فابتعد الفن المعماري ابتعاداً تاماً عن معظم ما يعتبر علامات فارقة للفن المعماري المعاصر السليم، واتجه صوب "الحيلة" المعمارية بدلاً من أن يستوحي الأوضاع الاجتماعية والطبيعية القوية وبدلاً من أن يستفيد من المال الموجود ويدعو أفضل المواهب ليوجه التغير المعماري والعمراني نحو وجهات حية، فلا يلجأ إلى ما لجأ إليه من هندسة شكلية خالية من كل معنى.

إن الذي يجري في الكويت فريد من نوعه، وما يجري في نطاق الفن المعماري يجب أن يهز تفكير كافة المعماريين واختصاصي تنظيم المدن ونقاد الفن العرب ليبحثوا، بعمق، في المغزى الكامل للتغير المعماري والحضري الجذري وفي أسبابه وليسبروا غور الظاهرة النفسية الاجتماعي للسبب وللنتيجة في ميدان الهندسة المعمارية من ناحية، وفي تنظيم البيئة وهندستها من ناحية أخرى.

ليس في الكويت أحد لا يخطط ولا يضع المشاريع ، فالكويت مهرجان حافل للتخطيط وللمشاريع على اختلافها. وترى فيها حشوداً ن رجال الأعمال والتجار والمقاولين، بالإضافة إلى المهندسين والمعماريين وموظفي الحكومة بل والأطباء – فهنا الأطباء أيضاً يدخل بعضهم حقل البناء والتجارة والمقاولات كمهنة إضافية أو كهواية – حشوداً من كل لون وخلفية وموهبة، يتحدثون بطلاقة وبحرة عن مشاريع تكلف ملايين الدنانير ويناقشون فيها، وكأنهم يتحدثون عن سعر ربطة عنق أو علبة سجاير. وليس في العالم كله مكان يبلغ فيه اهتمام الناس عموماً بمشروع ما (من التخطيط إلى التصميم إلى التنفيذ إلى التقاضي من أجل "أوامر التغييرات" المختلفة) حد أشمل وأدق وأحذق وأدهى من الاهتمام الذي تشهده في الكويت. وكثيراً ما شعرت خلال عملي في الكويت خلال هذه السنوات الست الأخيرة بأن المشاريع هنا، لا السياسة، هي التي تجمع بين من لا يجمع بينهم شيء. وفي هذه الأيام بالذات يدور الاهتمام الرئيسي لدى شبكات أصحاب المشاريع حول مشروع شط العرب الذي تبلغ كلفته عدة ملايين من الدنانير، ومشروع الكورنيش، ومشروع المدينة الرياضية الأوليمبية، ومشروع بناء ما يتراوح بين أربعة آلاف وخمسة آلاف مسكن لذوي المداخل المحدودة – هذا إلى جانب مئات المشاريع الأخرى التي تتفاوت بين بناء المراحيض العامة ومواقف الباصات وبناء المدارس الثانوية والمستشفيات ، إن المشاريع هنا لهي كالمتاجر الضخمة التي يباع فيها كل شيء، وشبكة أصحاب المشاريع كزبائن المتاجر ذوي المزاج الصعب في الاختيار.

ليس غريباً إذاً أن يتعرض معظم البناء الذي حصل، والمكان الذي حصل فيه، وسبب حصوله، للنقد الموضوعي والعلمي والاقتصادي، وإن تحصي عليه وجهة النظر الهندسية الاقتصادية مآخذ عديدة ، وقد كانت عملية الإنعاش الاجتماعي الجبارة، التي وضع آل الصباح أسسها كهدف وكمسعى سياسي اجتماعي فلسفي، :بقرة حلوبا" بالنسبة إلى الشبكة المهتمة بالمشاريع والوسطاء والكفلاء، وأدت الرغبة في اغتنام الفرصة ما دامت الفرصة سانحة إلى استغلال عدد وافر من المشاريع. إن ضخامة وسعة عملية التجارة والأشغال من كافة الأنواع والمجالات والأبعاد يجعلها، إذا أخذنا قلة عدد العاملين فيها بعين الاعتبار، أعظم عملية نسبياً في تاريخ البشرية. والحقيقة أن المنجزات المادية الملموسة على مسرح العمران في الكويت تشهد على ذلك بأفصح مما يمكن أن تنطق به آلات الحساب الإلكترونية.

ومع أن الكويت أنفقت بمنتهى الكرم على بيروقراطية من أغرب البيروقراطيات في التاريخ وعلى المستشارين والاختصاصيين والخبراء والمحاضرين ورجال هيئة الأمم، من سائر الأصناف والجنسيات، وصرفت مبالغ خيالية على الاجتماعات والمؤتمرات عن كل موضوع تحت الشمس يمكن أن تفكر فيه، لم تكن الخدمات والمشورة التي حصلت الكويت عليها مقابل ذلك صائبة سليمة على الدوام. فكثيراً ما كان الأشخاص الذين استقدموا الإعطاء المشورة أما أجهل من أن يقدموا مثل هذه المشورة، أو أخجل من أن يحاولوا إبداء رأي، أو أجبن من أن يفتحوا أفواههم. وهذا، برأيي، أبشع الاختبارات التي عرفتها هذه المدينة

العظيمة.. أما الخبراء والمستشارون الذين يجرؤون على تقديم نصح صائب وموضوعي وعلى تسديد نقد بناء، فإنهم نادرون – نادرون في بلد يشكو الوفرة في كل شيء آخر.. وهكذا تم بناء مدينة هائلة بدون أدنى اعتبار مادي للاقتصاد والمنطق والمستقبل والجمال والتراث العربي. فقد كان تدبير أمور البلد على صعيد التنفيذ، بالنسبة إلى الفلسفة الموجهة وتدبير أمور البلد على صعيد الحكم، أقل عمقاً وشمولاً وحنكة مما كان مفروضاً فيه أن يكون.

كان رد فعل الحكومة، لتصحيح هذا الوضع، إن قامت بالإجراء الطبيعي، فأحضرت العشرات من الخبراء الاقتصاديين والهندسيين وغيرهم. وغالباً ما أعجزتها بعض العناصر المريبة بين هؤلاء الخبراء، بفعل حسن النية أو سوء المشورة. لهذا تدنت سمعة "الخبير" في الكويت حالياً، وأصبح عرضة للحملات الصحفية. كما شاع الاعتقاد بأن الفاشل في بلده هو وحده الذي يأتي غلى الكويت لبيع "خبرته". ومع أن ذلك قد يصح على الكثيرين فإنه توجد استثناءات قليلة تناقض هذا الاعتقاد الشائع.

غير أن ما لا شك فيه أبداً هو أن الشخص الذي يلجأ إلى الكويت أو إلى منصب في الكويت يتمتع بمستوى من العيش المادي أعلى منه في أية مدينة عربية أخرى. فالفيلا في الكويت أشبه بالقصر في أي مكان آخر. ويكلف البيت العادي المتوسط الحال ما تكلفه الفيلا في عمان أو القدس مثلاً. ويملك الناس سيارات كبيرة فخمة وأثاثاً ثميناً وأجهزة

تليفزيون وألبسة غالية"ن ويتمتعون بتطبيب وتعليم مجانين، وبمرتبات تفوق المرتبات في أية مدينة عربية أخرى. لكن تمتع الكويت بمستوى من المعيشة المادية هو أعلى مستوى ممكن، تخفف منه ظاهرة أخرى: هي أن نوع المعيشة الاجتماعية والحضارية والثقافية والفنية والترفيهية لا يزال متخلفاً عنه في المدن العربية الرئيسية.

الكويت مدينة عمال وموظفين وتجار، وهي ليست بالمدينة التي يرمها الناس في العادة كما يؤمون بيروت أو باريس أو طوكيو أو نيويورك. فليست فيها أماكن تسلية، وليست فيها أية من وسائل المتعة التي يجدها المرء عادة في المدينة الحديثة الكبيرة ، إنما يجئ الناس الكويت لكي يشتغلوا ويقوموا بالأعمال الكبيرة أو الصغيرة ويحصلوا على الثراء إذا أمكنهم ذلك – أو على الأقل كي يحصلوا معيشتهم بما فيه الكفاية عندما يصبح صعباً عليهم تحصيلها في البلدان الأخرى. وعلى هذا فالبطالة في الكويت نزره يسيرة، ولو أن أوقات الفراغ فيها وافرة. والجو عام فيها مشحون بفكرة "العمل العمل العمل"، بدون اعتبار لنوع العمل أو تأثيره أو فعاليته، ما دام هذا العمل يدر مدخولاً معتبراً.

ويشكل العمال جزءاً كبيراً من مجموعة القوى العاملة في الكويت، فما يزال عمال المنشآت والميكانيكيون والفعلة على سائر أنواعهم يعملون بجد ونشاط لبناء هذه المدينة الصحراوية الفريدة، وللقيام بالخدمات المتعددة التي يتطلبها مجتمع ينعم بالبحبوحة. وموظفو الحكومة قوة حقيقية، تسير دفة الإدارة في المدينة والبلاد. والتجار

يستوردون من الخارج كافة البضائع التي يحتاجها السكان ويستهلكونها، من الدبابيس إلى البلدوزرات.

وقد كان من نتيجة التركيب والبنيان العمراني قديماً وحديثاً أن احتشدت أغلبية المكاتب الحكومية والمؤسسات التجارية والمالية والمصرفية واتخذت مقرها في الكويت القديمة. لهذا ينجم عن التنقل من المنازل للمكاتب ومن المكاتب للمنازل حركة محمومة ومد وجذر طاغيان، تتميز بها الكويت على سواها، إذ أن نمط الحركة وازدحام السير في المدن العربية الأخرى يتخذ طابعاً آخر مختلفاً عنه هنا.

وتشكل الهجرة الجماعية التي يقوم بها الناس كل صيف ظاهرة تكاد تكون فريدة. فما أن يأتي شهر تموز (يوليو) من كل عام حتى يهرع عشرات الألوف من السكان مصطحبين عائلاتهم للفرار بهم إلى أماكن يكون الطقس فيها أقر حرارة. وتتوقف جلسات البرلمان آنذاك، ويكون المجلس البلدي في أجازة، وتتخذ مدينة بأسرها طابع عطلة. أما الذين يبقون في المدينة فمقدار العمل الذي يطلب إليهم به يصغر بكثير عن المعتاد، وهذا يعوض عما يقاسون من حر لا يمكن أبداً أن يطاق — بالرغم من أنه تكاد لا توجد غرفة في الكويت تخلو من جهاز للتهوية يعمل نهاراً وليلاً.

وهناك ضرب آخر من الهجرة، يقوم به بعض السكان كل عطلة أسبوع على مدار السنة، عندما تتوجه جماعات كبيرة قاصدة البصرة، حيث يتاح لها أن تتمتع بكثير من الأشياء التي لا تجدها في الكويت أو

التي لا يسمح لها بها فيها ، وتدر هذه الزيارات الأسبوعية مدخولاً عالياً على البصرة، لم تكن تعرفه قبل أن فرضت الكويت الحظر على تعاطي المشروبات منذ حوالي سنتين.

ويملك السكان في الكويت، إذا أخذنا عددهم بعين الاعتبار، من السيارات والمنازل والآلات أكثر مما يملكها سكان أية مدينة عربية أخرى. وينطبق الشيء ذاته على استهلاك المشروبات الخفيفة، واستهلاك الطاقة الكهربائية. ووسائل التسلية المحببة للسكان هي الحفلات والمآدب، وسياقة السيارات، والنزهات في الزوارق، وصيد السمك، وصيد الطيور "القنص".

أما في الليل فالكويت أشبه بمدينة أشباح . فليس فيها نواد ولا علب ليلية، ولا كازينوهات، ولا يجد مغامرو الليل أمامهم غير دور السينما، ومنها هنا ثلاث أو أربع، ليرضوا بها أذواقهم الليلية. إلا أن هذا لا يعني أن الكويت مدينة ميتة في الليل، بل إنها على العكس من ذلك، ربما كانت أنشط مدينة، ليلياً، في البلاد العربية .. أما حياة الليل هذه فتتكون من حفلات خاصة ومن "الديوانية" ومن صخب السلك الدبلوماسي. ومع أن المشروب محرم قانونياً، تدبر الكويت أمرها وتحافظ على سمعتها بأن فيها دوماً نل يرطب، ولا يجد المرء جفافاً في الكحول أيان كان في الليل. أما كيف يتم ذلك كله فسر مغلق على إدراك كاتب هذا المقال وتخيلاته!

والكويت في الليل، التي تنيرها أنوار الشوارِع من كافة الألوان وأضواء السيارات التي لا تنقطع، اختبار بصري جديد، اختبار للعين جديد. وهي جذابة تستهوي النظر بشكل خاص من الجو، إذ يرى المرء، وهو على ارتفاعات مختلفة، صوراً متلألئة مختلفة، وخاصة صوراً لشبكة الطرقات في المدينة، التي تنعكس نحو قلب المدينة المتأجج النابض، فتضيع معالمها، وصوراً للشوارِع الرئيسية المنيرة المتحركة التي تتوهج كعقود لا آخر لها من اللؤلؤ والماس وغيرها من الحجارة الكريمة: وكأنها قطعة نحت متعددة الألوان متحركة. وتبدو دراماً الليل في الكويت أكثر دراماتيكية إذا أمها الزائر جواً وجاءها ليلاً من بيروت، مثلاً فمر فوق مجموعات القرى المنثورة على الجبال اللبنانية، ثم فوق دمشق وعبر الصحراء المظلمة إلى الكويت. فتنكشف أمامه، رأساً، صورة منطقة مسطحة، وتتراءى له أجزاؤها وتنجلي له صفاتها الطبيعية – التي تعكس الظروف الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية والمعاصرة – تماماً مثلما يكشف الفيلم السالب عن الصورة في اللون الأسود والأبيض.

تعكس المدن العربية في الليل التقدم الاقتصادي الذي حققه العالم العربي في العقدين الماضيين. قبل ذلك الحين كانت المدينة العربية في الليل معتمة صغيرة نسبياً. ثم ازدهرت، ولا تزال تزدهر وتتوسع لتسد متطلبات السكان، الذين أخذوا يزدادون عدداً ويزدادون (كما نأمل) استنارة، فصارت المدينة أشد إغراء وجاذبية في المساء. والكويت هي أكثر المدن العربية إغراء من هذا القبيل. يصدق هذا الوصف عليها حينما ينظر المرء إليها من عل، حيث تقع الكويت المخططة ضمن نطاق

الرؤية: كويت مئات الأميال من الطرق الدولية الممتازة، ومئات الدوارات، وملايين المصابيح الكهربائية.

غير أن للمنظر على الأرض، على مستوى المشاة أو حتى على مستوى سائقي السيارات، رد فعل مناقضاً للمدينة الشائقة المتوهجة نوراً، بالرغم من أنوارها الساطعة المتعددة الألوان. وذلك لما فيها من فراغ الليل الواسع، ن شيء شبيه بليل "مدينة الأشباح"، إذا لا توجد حياة ليلية ظاهرة خارج قدس أقداس المنزل، فلا يرى الإنسان غير سيارة تمر بين آن وآخر، منطلقة من دوار إلى دوار، وغير سهارى عائدين، واحداً بعد الآخر، على الطرقات الفخمة، مما يجعل المدينة تبدو في الليل خالية وباردة، بسبب المسافات وقلة كثافة السكان ووفرة الأراضي الخلاء.

يتصف المزاج في الكويت بالهدوء، بينما تتصف الحركة بالسرعة والهيجان. فالمساحات واسعة ومنبسطة، واسعة ومنبسطة في الواقع لدرجة أن نفراً قليلاً من المخططين كانت لديهم الجرأة على إبداء الملاحظة (وهي الملاحظة الواضحة البديهية) بأن المساحات هي بالفعل واسعة ومنبسطة. وأبعادها، على نقيض بيروت مثلاً، هي حاصلة الوفرة الكبرى في تقاليد المدينة الجميلة التي تفجرت قبل أوانها، جمالياً وعمرانياً، عاجزة عن إدراك عناصر تخطيط المدن وتكوينها اللائقة بالكويت من النواحي العضوية.

كل شيء في الكويت مغالي فيه. أبعاد الطرقات والسيارات والمباني ضخمة جداً، وكذلك أبعاد الناس، أما أبعاد الأشجار فقصيرة بالفعل. وأسواقها مغمورة بالبضائع والمتاع من كل بقعة في الكون. فالقوة الشرائية هنا عظيمة وكبيرة، وأسعار الحاجيات، فيما عدا المأكولات، منخفضة. ولذلك يشتري كل إنسان ويستهلك، ويشتري مرة بعد الأخرى، ويستهلك ويستهلك. ومما يصبغ الحياة في الكويت ببريق خاص، السلك الدبلوماسي. فأعضاؤه يحضرون كل مناسبة، وأنت تحس بوجودهم لأنهم كثيرو العدد في بلد صغير، فهم أشبه بسمكة كبيرة في بركة صغيرة. تراهم في المطار لتوديع مسافر كبير، وتراهم هناك أيضاً لاستقبال عائد كبير. وهم يحضرون حفلات افتتاح المؤتمرات، ويحضرون حفلات اختتامها. ويذهبون في المناسبات السعيدة للتهنئة، ويذهبون في المناسبات الحزينة للتعزية. وتراهم في هذه الوزارة أو تلكن أو ترى سياراتهم الليموزين التي ترفرف عليها أعلام بلادهم، وخاصة في مجلس التخطيط ووزارة التجارة والصناعة (وهما حالياً متجاوران، مما يسهل الأمر عليهم) يستفهمون عن مصير هذا المشروع أو ذاك، وأين وصل العمل في خطة السنوات الخمس وأين لم يصل، ويقدمون خدمات خبرائهم وتجارهم وشركاتهم، ويدعون هذا الموظف الحكومي الكبير أو ذاك لزيارة بلدهم ويضعون معه برامج الزيارة العتيدة. ليس في العالم عاصمة "يصطدم" الإنسان فيها بهذا العدد الضخم من الدبلوماسيين كما يفعل في الكويت، – بكل ما في كلمة "اصطدام" من معنى حرفي. وفي

الليل لا تتوقف حفلات الكوكتيل عن التسلية والإبهاج والأخذ بالألباب والاستحواذ عليها.

تقيم الجالية الدبلوماسية أو سلسلة الجيوب الدبلوماسية الصغيرة في عدد من الفيلات الغريبة الأشكال على جانبي شارع الاستقلال أو في الشوارع المتفرعة عنه، وتقوم مكاتبها عادة على جانبي شارع فهد، تزينها الإعلام الملونة. أن أثر الدبلوماسيين في مدن كلندن أو موسكو، أو حتى كالقاهرة أو بغداد، تحد منه كثافة المدينة ومشاكلها الجماهير ومشاغلها واندفاعها وركضها لكسب العيش. أما في الكويت فإن أثرهم يتضخم ويبالغ فيه بسبب حداثة مجيئهم وصغر منطقة الاحتكاك بهم وأناقة مساكنهم الظاهرة وحماسهم الزائد للمشاريع وحبهم الغريب لبعض الموظفين والأفراد.

في الكويت، وهي المدينة والدولة، والمدينة الأم في أغنة دولة في التاريخ، نشاط دبلوماسي قوي يصعب على وشنطن ولندن وموسطو ومضاهاتها فيه. وبما أنها قصبة كبيرة إذا ما قورنت بقرى كانت بسيطة هادئة فيما مضى، مثل الجهرة والفحاحيل، وهي أيضاً المدينة الرئيسية التقليدية في المنطقة – فإنها خضعت، في غضون هذه الفترة القصيرة، لكثير متما كتبه ابن خلدون بخصوص القرى التي أصبحت مدناً.

لقد أضحت الكويت مدينة الأعاجيب من بين المدن العربية. أضحت شيئاً يجعل من "ألف ليلة وليلة" مجرد حلم بسيط. فهي من حيث الضيافة مدينة عربية مائة بالمائة. لقد قامت بدور المضيف السخي

لعدد من الضيوف يفوق، إذا قيس بالنسبة إلى السكان، عدد ضيوف أي مضيف آخر في التاريخ ، ولعله لا يوجد في التاريخ شبيه لهذه الحالة: مدينة على هذا الصغر ذات قلب على هذا الكبر. فعدد زوار الكويت وضيوفها، أفراداً ومندوبين، ممن تقوم الكويت باستضافتهم باستمرار وتقيم لهم الحفلات والمآدب، يفوق أية سابقة في التاريخ. بل أن رجال مؤسسات الأعمال الذين يأتون إلى الكويت لأي سبب، يحلون هم أيضاً ضيوفاً على الحكومة. والواقع أن مجموعة مضافات الكويت هي إحدى المؤسسات الكبرى فيها، وتدر الفنادق التي ينزل فيها ضيوف الحكومة، أرباحاً طائلة على أصحابها، وفي الكويت أيضاً عدد كبير من رجالات العرب المعروفين في بلادهم ممن غادروا بلادهم راضين أو مرغمين وأعطوا في الكويت أعمالاً ومناصب.

كانت الكويت القديمة مثالاً للمدينة العربية الصحراوية. وقد شهدت، خاصة في العقد الأخير من السنين، تبدلاً معجزاً. وكان تطور الكويت سريعاً جداً إلى حد أنها تقدمت على سائر المدن العربية الأخرى تقريباً في البناء ولفي مستوى المعيشة وفي التركيب والمحتوى المديني. وهي تتفوق على كافة المدن العربية من حيث الخدمات الاجتماعية والطاقة الكهربائية والقوة الشرائية وفي حقول الإنعاش الاجتماعي. وقد كسرت الكويت جميع المعدلات السابقة في ميدان بناء المدارس، فلا شك أن مباني المؤسسات التعليمية هنا يمتاز امتيازاً كبيراً عما هو عليه ي أية مدينة عربية أخرى، إن لم نقل في أية مدينة أخرى إطلاقاً.

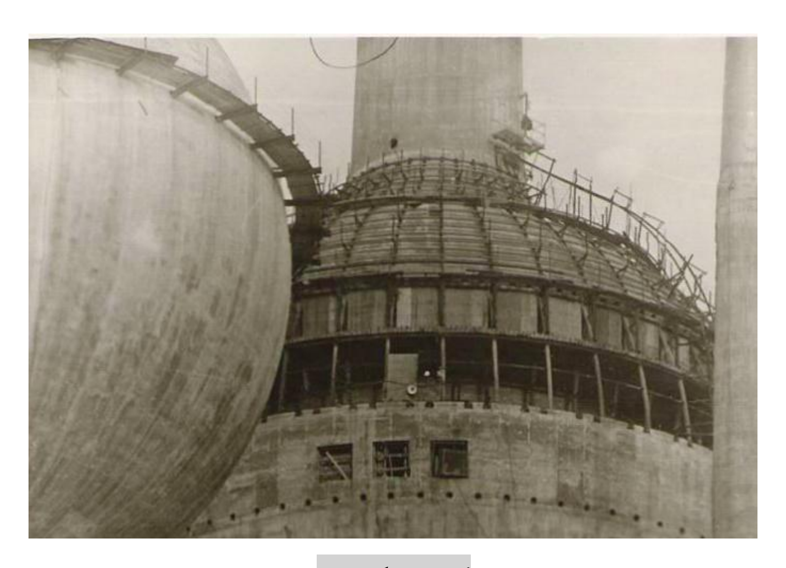
أجل، لقد قامت الكويت في حقل التعليم بعمل مدهش. فالمدارس التي بنتها، من حدائق وروضات الأطفال إلى المدارس الثانوي، تستحوذ على الإعجاب. ولا يتوانى مخطوطها عن توفير كل جهد لتزويد الطلبة بأعلى مستــوى التسهيــلات والمرافق ، ثم إن جامعة الكويت تلوح في الأفق – وستصبح، عندما تفتح أبوابها لاستقبال الطلاب من الكويت ومنطقة الخليج العربي، نبراساً للنور والعلم في منطقة مضى عليها وقت طويل وهي منسية، أو لعلها هي نسيت العالم.

وهناك حقل آخر حققت الكويت فيه معجزة. فبينما أدى مسير العمران الآلي في الكثير من المدن العربية إلى إبادة عدد ضخم من الأشجار والمناظر الطبيعية المحلية، وقضى على الخضرة بلا مبالاة وبقسوة، أنشأت الكويت، على أرضها الصحراوية، وبالرغم من ندرة المطر والماء ومن الطقس المحرق، مئات الآلاف من الأشجار والفدادين العديدة من الخضرة والمناظر الطبيعية الجميلة الواسعة. وقد يبدو غريباً أن نقول أن الانطباع الذي تتركه الكويت في أماكن كثيرة هو انطباع عن مدينة حدائقية خضراء، في حين أن أكثر من مدينة عربية، كانت منذ نشوئها وإلى ما قبل سنوات فحسب مدينة حدائق خضراء، قد أضحت الآن ذات مظهر صحراوي جاف.

إن الكويت أروع المدن العربية، من أكثر من ناحية وبالرغم من عوائقها الكثيرة. وربما كان الله والقدر قد شاء لهذه المعجزة العربية العمرانية أن تحصل في أقسى بقعة من بقاع الأرض، لتقوم بدور المرشد،

كمصباح هداية، للمدن العربية الأخرى، لتعرف ماذا عليها أن تفعل من أجل سكانها. أفليست المدينة، في جوهرها، مجرد مكان يقدم لساكنيه محيطاً يؤمن لهم الصحة الرفاهية والأمان؟

إن الكويت أقرب المدن العربية قاطبة من التقيد بالمطالب الأساسية لتخطيط المدن الإنساني، إن مجتمعا بكامله معد للبناء، للبناء من أجل الإنسان – وذلك، على ما اعتقد، هو الهدف الأسمى، والعمل الأسمى، والإنجاز الأسمى، لهذا فاعتقادي أن الكويت ستظل تذكر على الدوام، فإن ما شادته من أجل خير الإنسان سيخلد طويلاً من بعد أن يزول ما شيد من أجل باطل الإنسان وغرور الإنسان.



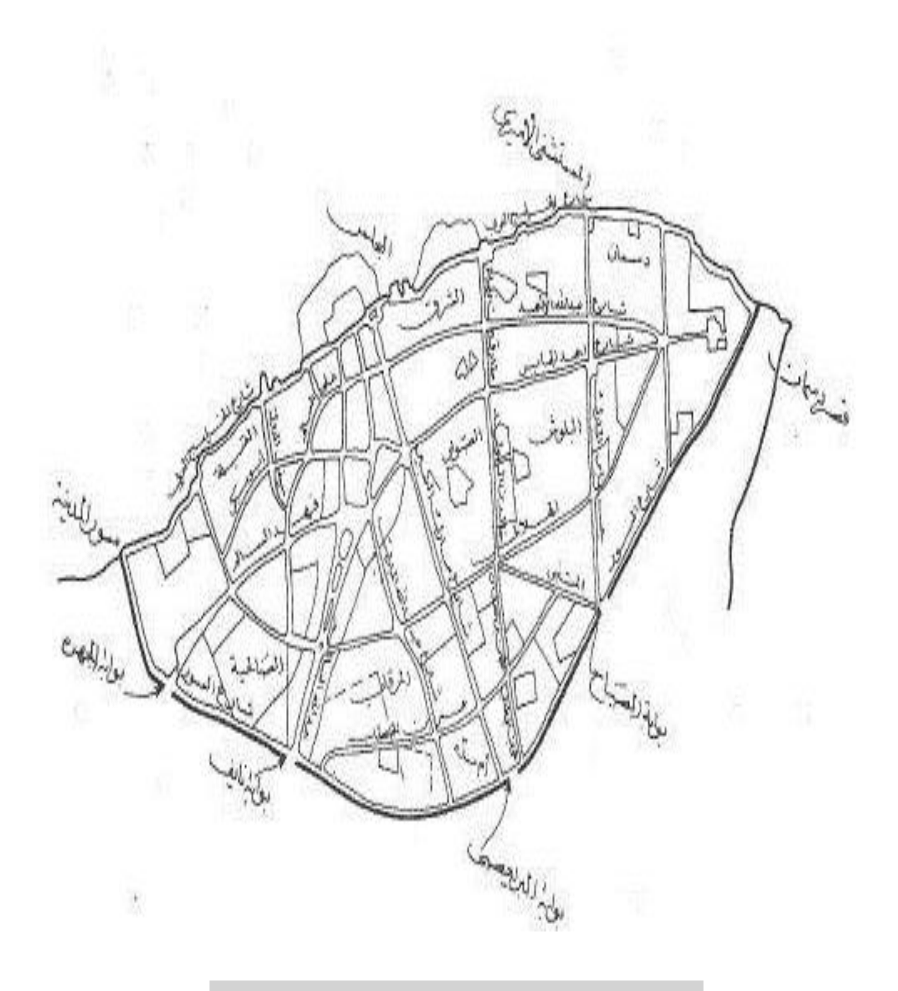
أبراج الكويت



الأحمدي – الكويت



الجمرك البحري



السور والبوابات والأحياء القديمة وشوارعها



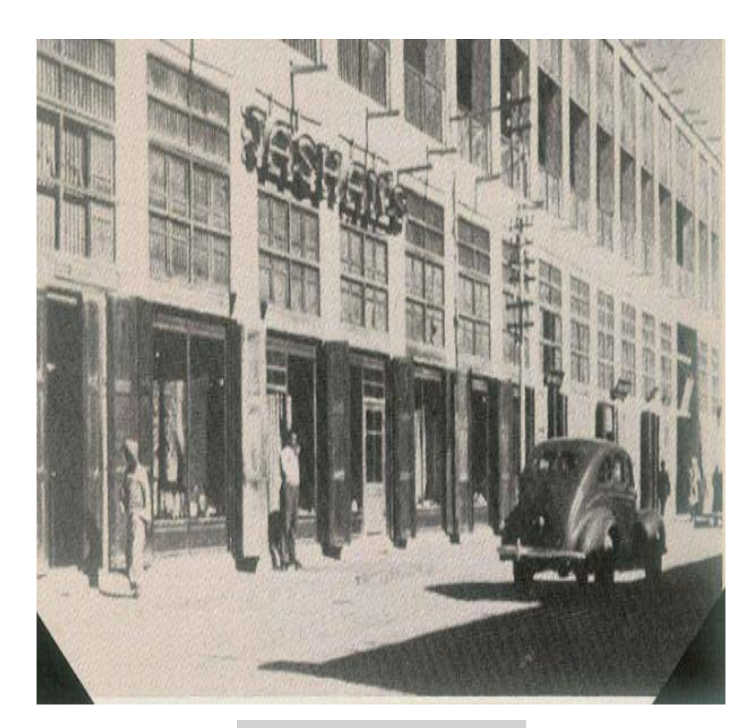
الكويت ١٩٦٦م



السور الثالث



المرقاب



أول مركز تسوق بالكويت



ساحة الصفاه



سور الكويت القديم



سوق القيصرية الكويت

الفهرس

مقدمة : ٥
أنوار ابن خلدون الضائعة في فن العمارة وتنظيم المدن .. ٢١
المدينة الحديثة.. أجواؤها وبيئاتها ٤٤
حالة المدن العربية .. التنظيم الشامل بالنظر للمعوقات .٦٧
الكويت.. مدينة عربية يشتبك فيها القديم والجديد ٨٠